الفصل الثالث

اتساع الدلالة لأسباب لغوية

من الوسائل التي اعتمدها الخطاب القرآني في توسيع دلالاته، استثمار الطاقة التعبيرية في حروف المعاني، وتعدد دلالة المفردات اللغوية التي قد يكون مردُّها إلى دلالة الكلمة على معنيين من جذر واحد، أو من جذرين مختلفين، أو على معنيين أحدهما حقيقة والآخر مجاز.

أولاً - تعدد دلالة حروف المعاني:

قد يدلُّ كل حرف من حروف المعاني على معنيين أو أكثر، وقد يجتمع في الحرف بعض معانيه في سياق واحد، فيتَّسع الخطاب لتأويلات متعددة بعدد تلك المعاني، وفيما يلي نماذج لتعدد احتمالات التفسير في بعض الآيات الكريمة الناجم عن اتساع حروف المعاني لمعنيين أو أكثر في الخطاب نفسه.

١- تعدد دلالة الهمزة:

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٦٢-٦٣].

همزة الاستفهام في قولهم: ﴿ءَأَنتَ﴾ تحتمل معنيين:

الأول: التقرير، إذ هم جازمون بمعرفة الفاعل، ويوجهون السؤال لإبراهيم عليه السلام على سبيل التقرير والإثبات، يقول الألوسي: "والهمزة كما قال العلامة التفتازاني للتقرير بالفاعل إذ ليس مراد الكفرة حملَه عليه السلام على الإقرار بأن كسر الأصنام قد كان، بل على الإقرار بأنه منه"(١).

والمعنى الثاني: معنى الاستفهام الحقيقي في التماسهم معرفة الفاعل، وهم يجهلون الفاعل، يقول الخطيب: "يجوز أن يكون الاستفهام على أصله؛ إذ ليس في السياق ما يدل على أنهم كانوا عالمين بأنه عليه السلام هو الذي كسر الأصنام حتى يمتنع حمله على حقيقة الاستفهام"(٢).

وقد جمع ابن هشام الرأيين بقوله: "وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾ محتمل لإرادة الاستفهام الحقيقي بأن يكونوا لم يعلموا أنه الفاعل، ولإرادة التقرير، بأن يكونوا قد علموا، ولا يكون استفهاماً عن الفعل ولا تقريراً به؛ لأن الهمزة لم تدخل عليه، ولأنه عليه الصلاة والسلام قد أجابهم بالفاعل بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾"(٣).

وإذن فنظم الآية الكريمة دلَّ على معنيي الاستفهام الحقيقي والتقريري بحرف واحد، هو همزة الاستفهام.

قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٥-٤٦].

الاستفهام بالهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يحتمل معنيين:

(١) روح المعاني: ١٧/ ٦٤.
(٢) نفسه: ١٧/ ٦٤.
(٣) مغني اللبيب: ٢٦.

الأول: أن أهل مكة لم يسافروا؛ ولذلك لم يعتبروا بهذه الآثار، فحثَّهم على السفر؛ ليروا مصارع تلك الأمم فيعتبروا، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١١].

والثاني: أن يكونوا قد سافروا ولم يعتبروا؛ فلهذا أنكر عليهم كما أنكر عليهم في قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٣٧-١٣٨].

يقول الرازي في قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: "يحتمل أنهم ما سافروا فحثهم على السفر؛ ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا، ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك، ولكن لم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا"(١).

فالآية اتسعت لمعنيين محتملين: السفر مع الإنكار، وعدم السفر مع الحثِّ عليه، كل ذلك بعبارة واحدة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٢].

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ يحتمل ثلاثة معان:

أولها: أن يكون تقريراً لهم بما عندهم؛ لتحقُّق أنَّ كلَّ أحد يقرُّ بأنه لا يحب ذلك؛ ولذلك أجيب الاستفهام بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

ثانيها: أن يكون إنكاراً توبيخيّاً لهم على حبهم الغيبة، مع الأمر بكرهها.

(١) التفسير الكبير: ٢٣/ ٤٠.

والثالث: أن يكون إنكاراً مكذِّباً لادِّعائهم بلسان الحال محبة أكل لحم أخيهم.

يقول الزركشي: " قد يجتمع الاستفهام الواحد للإنكار والتقرير... كقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، يحتمل أنه استفهام تقرير، وأنه طلب منهم أن يقرُّوا بما عندهم تقرير ذلك؛ ولهذا قال مجاهد: التقدير (لا)؛ فإنهم لما استفهموا استفهام تقرير بما لا جواب له إلا أن يقولوا (لا) جعلوا كأنهم قالوا. وهو قول الفارسي والزمخشري. ويحتمل أن يكون استفهام إنكار بمعنى التوبيخ على محبتهم لأكل لحم أخيهم فيكون ميتة والمراد محبتهم له غيبته على سبيل المجاز. و ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ بمعنى الأمر، أي: اكرهوه. ويحتمل أن يكون استفهام إنكار بمعنى التكذيب أنهم لما كانت حالهم حال من يدعي محبة أكل لحم أخيه نسب ذلك إليهم وكذبوا فيه فيكون ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ خبراً "(١).

ففي الآية ثلاثة احتمالات: تقرير وإنكاران موبِّخ ومكذِّب، باستخدام همزة الاستفهام في نظم الآية الكريمة.

٢- تعدد دلالة (أل التعريف):

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٦٠].

في تعريف ﴿ٱلْحَجَرَ﴾ في الآية الكريمة دلالتان:

الأولى: قصدُ حجرٍ معين، فتكون اللام عهدية، والإشارة إلى حجر معلوم، أي: اضْرِب بعَصَاكَ الْحَجَرَ المعهود لديك.

(١) البرهان: ٢/ ٣٤٤-٣٤٥.

والثانية: أن تكون اللام لاستغراق الجنس، أي: اضْرِب بعَصَاكَ الشيء الذي يقال له الْحَجَر، أيَّ حجر. ولم يأمره أن يضرب حجراً بعينه.

يقول الشوكاني: "والحجر يحتمل أن يكون حجراً معيناً فتكون اللام للعهد، ويحتمل ألَّا يكون معيناً فتكون للجنس، وهو أظهر في المعجزة وأقوى للحجة"(١).

ويقول أبو حيان: "لم يكن حجراً معيناً، بل أي حجر ضرب انفجر منه الماء، وهذا أبلغ في الإعجاز، حيث ينفجر الماء من أي حجر ضرب...، فعلى هذا تكون الألف واللام في ﴿ٱلْحَجَرَ﴾ للجنس. وقيل: إن الألف واللام للعهد، وهو حجر معين حمله معه من الطور"(٢).

والمعنيان محتملان عبَّرت عنهما الآية الكريمة جميعاً، غير أن دلالة الجنس في التعريف أبين في القدرة وأبلغ في الحجة والإعجاز.

قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٩٠].

التعريف في قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ يحتمل دلالتين:

الأولى: أن تكون اللام عهدية، والمقصود بالكافرين بنو إسرائيل المُتحدَّث عنهم في سياق الآيات، فكأنه قال، ولهم عَذَابٌ مهِينٌ.

الثانية: أن تفيد العموم، وهذه لها مزية على قوله: ولهم عذاب مهين، لأن العبارة الأولى تشمل أولئك الكفار وغيرهم، والعبارة الثانية لا يدخل فيها إلا المُتحدَّث عنهم.

---

(١) فتح القدير: ١/ ٩١.

(٢) البحر المحيط: ١/ ٣٨٩.

يقول الألوسي: "﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ اللام في الكافرين للعهد، والإظهار في موضع الإضمار للإيذان بعليَّة كفرهم لما حاق بهم، ويحتمل أن تكون للعموم فيدخل المعهودون فيه"(١).

فللتعريف في الكلمة دلالتان محتملتان، التخصيص بالمعهودين والتعميم، غير أن الثانية أوسع.

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢٦-١٢٧].

الألف واللام في تعريف ﴿ٱلنَّصْرُ﴾ تحتمل أيضاً دلالتين:

الأولى: العهدية، أي وَمَا النَّصْرُ المشار إليه الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢٣] إِلَّا مِنْ عِنْدِ الله. يقول الألوسي في تعليق ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾: "جوز أن يتعلق بما تعلق به الخبر في قوله سبحانه: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢٦] على تقدير كونه عبارة عن النصر المعهود"(٢).

الثانية: أن تفيد اللام العموم في كل نصر، يقول أبو حيان: "التقدير: وما النصر إلا كائن من عند الله، لا من عند غيره؛ لأحد أمرين: إما قطع طرف من الكفار بقتل وأسر، وإما بخزي وانقلاب بخيبة. وتكون الألف واللام في ﴿ٱلنَّصْرُ﴾ ليست للعهد في نصر مخصوص، بل

(١) روح المعاني: ١/ ٣٢٣.
(٢) نفسه: ٤/ ٤٨.

obeikandl.com

هي للعموم، أي: لا يكون نصر أي نصر من الله للمسلمين على الكفار إلا لأحد أمرين"[١].

فالتعميم والتخصيص محتملان في الآية، ولكنَّ الدلالة الثانية أوسع وأشمل؛ إذ يدخل فيها كل نصر.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٠].

التعريف في ﴿ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ يحتمل كذلك دلالتين:

الأولى: أنه الميثاق المعهود في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٢].

الثانية: أنه تعريف الجنس فيستغرق جميع المواثيق. يقول الزمخشري: "ولا ينقضون كلَّ ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد، تعميم بعد تخصيص"[٢].

وقد جمع القرطبي الاحتمالين بقوله: "﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ يحتمل أن يريد به جنس المواثيق، أي، إذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقضوه...، ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه، وهو الذي أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب أبيهم آدم"[٣].

وجنس الميثاق أعم وأشمل؛ إذ يدخل فيه الميثاق الذي أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب أبيهم آدم، وكل المواثيق من التزام

(١) البحر المحيط: ٣/ ٥٦.
(٢) الكشاف: ٢/ ٤٩٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٣٠٧-٣٠٨.

العبد أنواع الطاعات، والمواثيق المذكورة في التوراة والإنجيل على وجوب الإيمان بنبوة محمد ﷺ عند ظهوره، والمواثيق بينهم وبين العباد.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٩].

تعريف ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يحتمل معنيين:

الأول: هم المجاهدون المذكورون في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾، وكان من الممكن أن يقول: وَإِنَّ الله لَمَعَهم، ولكنَّ ذكر ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ هو من قبيل إقامة الظاهر مُقَام المضمر إظهاراً لشرفهم.

والثاني: شمول المحسنين لكلِّ من عمل عملاً حسناً، يقول ابن عاشور: "والمراد بـ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ جميع الذين كانوا محسنين، أي: كان عملُ الحسنات شعارهم، وهو عامّ"(١).

وذكر الألوسي المعنيين بقوله: "و(أل) في ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يحتمل أن تكون للعهد؛ فالمراد بـ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الذين جاهدوا، ووجه إقامة الظاهر مقام الضمير ظاهر، وإلى ذلك ذهب الجمهور، ويحتمل أن يكون للجنس؛ فالمراد بهم مطلق جنس من أتى بالأفعال الحسنة، ويدخل أولئك دخولاً أوليّاً برهانيّاً"(٢).

والآية الكريمة جمعت المعنيين بحرف التعريف؛ فبدل أن يقال: وإن الله لمع المحسنين، وإن الله لمع كل محسن، كانت الآية الكريمة بلفظها: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ جامعة للمعنيين معاً من أقرب سبيل.

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٠/ ٢٠٧.

(٢) روح المعاني: ٢١/ ١٥.

obeikandl.com

٣- تعدد دلالة (إلَّا):

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۗ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٥-٨٦].

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ﴾ يحتمل عند المفسرين وجهين:

الأول: استثناء منقطع؛ بمعنى (لكن) للاستدراك، أي: ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك؛ لأن النبي ﷺ لم يرجُ أن يبعثه الله بكتاب من عنده، بل كان ذلك رحمة من الله تعالى به واصطفاء له.

والثاني: استثناء متصل، والمعنى: وما ألقي عليك الكتاب إلا رحمة من ربك.

يقول أبو حيان: "﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ هذا تذكير لنعمه تعالى على رسوله، وأنه تعالى رحمه رحمة لم يتعلق بها رجاؤه. وقيل: بل هو معلق بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وأنت بحال من لا يرجو ذلك، وانتصب رحمة على الاستثناء المنقطع، أي: لكن رحمة من ربك سبقت فألقى إليك الكتاب. وقال الزمخشري: هذا كلام محمول على المعنى، كأنه قيل: وما ألقي عليك الكتاب إلا رحمة من ربك. انتهى. فيكون استثناء متصلاً إما من الأحوال، وإما من المفعول له"[(١)].

ففي الآية معنيان محتملان، ولعلهما مرادان معاً، ولو عبَّر بـ (لكن) مثلاً لقصر الآية على المعنى الأول دون الثاني، ولكنه اتساع الدلالة في الخطاب القرآني.

---

(١) البحر المحيط: ٧/ ١٣٢.

٤- تعدد دلالة (أم):

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٨٠].

و﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ يجوز فيها وجهان:

أحدهما: أن تكون متّصلة، فتكون للمعادلة بين الشيئين، أي: أيّ هذين واقع، وأخرجه مُخْرج المتردّد فيه للتقرير، وإن كان قد علم وقوع أحدهما، وهو قولهم على الله ما لا يعلمون.

الثاني: أن تكون منقطعة بمعنى (بل)، والتقدير: بل تَقُولُونَ عَلَى الله مَا لَا تَعْلَمُونَ.

يقول أبو السعود: "و﴿أَمْ﴾ إما متصلةٌ، والاستفهام للتقرير المؤدي إلى التبكيت لتحقق العلم بالشق الأخيرِ، كأنه قيل: أم لم تتخذوه بل تتقوّلون عليه تعالى. وإما منقطعةٌ، والاستفهام لإنكار الاتخاذِ ونفيِه، ومعنى (بل) فيها الإضرابُ والانتقالُ من التوبيخ بالإنكار على اتخاذ العهدِ إلى ما تفيد همزتُها من التوبيخ على التقوُّل على الله سبحانه"(١).

والآية متسعة للمعنيين باستخدام ﴿أَمْ﴾، ولعلهما مرادان معاً، ولو قال: (بل تَقُولُونَ عَلَى الله مَا لَا تَعْلَمُونَ) لتعيَّن المعنى الثاني وانتفى معنى المعادلة بين الشيئين، ولكنه عبَّر بـ (أَمْ) فكسب المعنيين معاً.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٥١-٥٢].

و﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا﴾ تحتمل دلالتين:

(١) إرشاد العقل السليم: ١/ ١٢١.

الأولى: أن تكون متصلة على إقامة المسبب مقام السبب، والمعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون فتعلمون أني خير منه.

والثانية: أنها منقطعة للتقرير بمعنى (بل أَنَا خَيْرٌ منْ هَذَا)، وقد قدَّم من أسباب فضله مُلْك مِصْرَ وَجري الأَنْهَار من تحته.

وقد لخص الشوكاني آراء اللغويين فقال: "(أم) هي المنقطعة المقدّرة بـ (بل) التي للإضراب دون الهمزة التي للإنكار، أي: بل أنا خير. قال أبو عبيدة: (أم) بمعنى (بل)، والمعنى: قال فرعون لقومه: بل أنا خير. وقال الفراء: إن شئت جعلتها من الاستفهام الذي جعل بـ (أم) لاتصاله بكلام قبله، وقيل: هي زائدة، وحكى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون (أم) زائدة، والمعنى: أنا خير من هذا. وقال الأخفش: في الكلام حذف، والمعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون؟ ثم ابتدأ، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾، وروي عن الخليل، وسيبويه نحو قول الأخفش، ويؤيد هذا: أن عيسى الثقفي، ويعقوب الحضرمي وقفا على (أم) على تقدير: أم تبصرون، فحذف لدلالة الأوّل عليه، وعلى هذا فتكون (أم) متصلة لا منقطعة، والأوّل أولى، ومثله قول الشاعر الذي أنشده الفراء:

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى

وصورتها أم أنت في العين أملح

أي: بل أنت"[1].

ولو عبّرت الآية بـ (بل) لتحدَّد معنى الانقطاع، ولكنها جاءت بـ (أم) فكسبت المعنيين من أقرب سبيل، وبأوجز عبارة.

---

(١) فتح القدير: ٤/ ٥٥٩.

٥- تعدد دلالة (إن):

قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِن﴾ في الآية الكريمة يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها شرطيةٌ، وجوابها محذوفٌ، أي: ولو كان مكرهم معدّاً لإزالةِ الجبال الرَّواسي.

والوجه الثاني: أنَّها نافيةٌ، واللام بعدها لام الجحودِ؛ لأنَّها بعد كونٍ منفيّ، والمعنى على تحقير مكرهم، أي: وما كان مكرهم لتزول منه الشَّرائع التي كالجبال في ثبوتها وقوَّتها.

والوجه الثالث: أن تكون(إنْ) المخففة من الثقيلة. والمعنى على تعظيم مكرهم، أي: وإنَّ عِظَمَ مكرِهم وشِدَّتَه؛ ليذهب بعظام الأمور.

يقول البيضاوي: "﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ في العظم الشدة ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ مسوًى لإزالة الجبال. وقيل: (إنْ) نافية واللام مؤكِّدة لها كقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٣]، على أن الجبال مثل لأمر النبي ﷺ ونحوه. وقيل: مخففة من الثقيلة، والمعنى أنهم مكروا ليزيلوا ما هو كالجبال الراسية ثباتاً وتمكُّناً من آيات الله تعالى وشرائعه"(١).

ففي الآية ثلاثة احتمالات ممكنة، ولعلها مرادة في الوقت نفسه، جُمعت بـ (إنْ)، ولو قال بدلاً منها (ما) أو (لو) أو (إنَّ) لقصر دلالة الآية على احتمال واحد من تلك الاحتمالات، ولكنه الإعجاز البياني في اتساع الدلالة.

---

(١) أنوار التنزيل: ٣/ ٣٥٥.

٦- تعدد دلالة (أنى):

قال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٣].

قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ يصلح للمكان والزمان والكيفية، وقد ذكر المفسرون الاحتمالات الثلاثة:

الأول: المكان، أي: إنه يجوز للزوج أن يأتيها من قُبلها في قُبلها، ومن دُبرها في قُبلها.

والثاني: الزمان، بمعنى: أيّ وقت شئتم من أوقات الحلِّ.

والثالث: أنه يجوز للرجل أن يأتيها قائمة أو باركة، أو مضطجعة، بعد أن يكون في موضع الحرث.

جاء في روح المعاني: "﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ قال قتادة والربيع: من أين شئتم. وقال مجاهد: كيف شئتم. وقال الضحاك: متى شئتم"(١). ويقول ابن عطية: "وقوله: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ معناه عند جمهور العلماء من صحابة وتابعين وأئمة: من أي وجه شئتم مقبلة ومدبرة وعلى جنب، و﴿أَنَّىٰ﴾ إنما تجيء سؤالاً أو إخباراً عن أمر له جهات، فهي أعم في اللغة من (كيف) ومن (أين) ومن (متى)، هذا هو الاستعمال العربي، وقد فسر الناس ﴿أَنَّىٰ﴾ في هذه الآية بهذه الألفاظ، وفسرها سيبويه بـ(كيف) و(من أين) باجتماعهما"(٢).

وجاء في البحر المحيط: "و﴿أَنَّىٰ﴾: بمعنى (كيف) بالنسبة إلى العزل وترك العزل، قاله ابن المسيب، فتكون الكيفية مقصورة على هذين الحالين، أو بمعنى كيف على الإطلاق في أحوال المرأة، قاله عكرمة

(١) روح المعاني: ٢/ ١٢٤.
(٢) المحرر الوجيز: ١/ ٢٩٩.

والربيع، فتكون دلت على جواز الوطء للمرأة في أي حال شاءها الواطئ مقبلة ومدبرة على أي شق، وقائمة ومضطجعة وغير ذلك من الأحوال، وذلك في مكان الحرث، أو بمعنى (متى). قاله الضحاك، فيكون إذ ذاك ظرف زمان، ويكون المعنى: فأْتوا حرثكم في أي زمان أردتم"[١].

فتأمَّل كيف جمعت الآية بـ ﴿أَنَّىٰ﴾ دلالات الزمان والمكان والحال معاً بلفظ واحد، فبيَّنت وأوجزت، ولو قال (متى) أو (كيف) أو (من أين) لما أفاد غير معنى واحد.

قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠١].

و﴿أَنَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ تحتمل كذلك أن تكون بمعنى (كيف) وتحتمل معنى (من أين).

يقول الألوسي: "أي (من أين) أو (كيف) يكون له ولد والحال أنه ليس له صاحبة يكون الولد منها"[٢]. والآية عبرت عن نفي الولد في السؤالين المحتملين بلفظ واحد.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٥٢].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ ﴿أَنَّىٰ﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون بمعنى (كيف). جاء في فتح القدير: "والمعنى: كيف لهم أن يتناولوا الإيمان من بعد؛ يعني في الآخرة، وقد تركوه في الدنيا؟ وهو معنى: ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾"[٣].

---

(١) البحر المحيط: ٢/ ١٨١.

(٢) روح المعاني: ٧/ ٢٤٢.

(٣) فتح القدير: ٤/ ٣٣٦.

obeikandl.com

والآخر: أن يكون بمعنى (من أين) استفهاماً عن المكان، وهو مستعمل في الإنكار. يقول البيضاوي: "﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ ومن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولاً سهلاً ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾"(١).

والمعنيان سائغان بل مرادان في الآية؛ فقد عبَّرت الآية عن نفي المعنيين من أقرب سبيل، وبأوجز عبارة.

قال تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ٤٤/ ١٠-١٤].

و﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾أيضاً تحتمل المعنيين نفسيهما:

الأول: الدلالة على الحال، أي: كيف يذكرون ويتعظون؟ يقول الرازي: "يعني كيف يتذكرون وكيف يتعظون بهذه الحالة وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل في وجوب الطاعة، وهو ما ظهر على رسول الله من المعجزات القاهرة والبينات الباهرة، ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ ولم يلتفتوا إليه؟"(٢).

والثاني: استفهام عن المكان، أي: من أين لهم التذكر والاتعاظ؟ يقول ابن عاشور: "و﴿أَنَّىٰ﴾ اسم استفهام، أصله استفهام عن أمكنة حصول الشيء، ويتوسعون فيها فيجعلونها استفهاماً عن الأحوال بمعنى (كيف) بتنزيل الأحوال منزلة ظروف مكان كما هنا بقرينة قوله: ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾. والمعنى: من أين تحصل لهم الذكرى والمخافة عند ظهور الدخان المبين وقد سدَّت عليهم طرقها بطعنهم في الرسول ﷺ الذي أتاهم بالتذكير؟ والاستفهام مستعمل في الإنكار والإحالة، أي كيف

(١) أنوار التنزيل: ٤/ ٤٠٧، إرشاد العقل السليم: ٧/ ١٤٠.
(٢) التفسير الكبير: ٢٧/ ٢٠٨.

يتذكرون وهم في شك يلعبون وقد جاءهم رسول مبين فتولوا عنه وطعنوا فيه "(١).

والظاهر أن الآية الكريمة جمعت فأوجزت؛ إذ عبَّرت بـ ﴿أَنَّىٰ﴾ عن استبعاد تذكرهم من جهتي الحال والمكان، فكأنها قالت: (من أين لهم الذكرى؟ وكيف تأتيهم وقد تولوا عن رسولهم؟)، فهو سؤال عن الموضع الذي تأتي منه الذكرى، وعن حالتهم التي هم فيها، وكلاهما استفهام غير حقيقي يدل على الاستبعاد، ولو قال (من أين لهم الذكرى)، أو (كيف لهم الذكرى) لأدّى ذلك معنى واحداً فجاء بـ ﴿أَنَّىٰ﴾ ليجمع المعنيين معاً.

٧- تعدد دلالة (أو):

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ١٣٥].

تدلُّ ﴿أَوْ﴾ عند النحاة والمفسرين في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ على أحد أمرين:

أولهما: أنَّ ﴿أَوْ﴾ بمعنى (الواو)، فعلى هذا يكون الضمير في (بِهِمَا) عائداً على لَفْظِ غنيّ وفقير. يقول الزركشي: "إذا عطف بـ (أو) وجب إفراد الضمير، نحو: (إن جاء زيد أو عمرو فأكرمه)؛ لأن (أو) لأحد الشيئين، فأما قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ فقيل: إن (أو) بمعنى (الواو) "(٢).

ثانيهما: أن (أَوْ) على بابها، وهي هنا لتفصيل ما أُبْهِم في الكلام. جاء

(١) التحرير والتنوير: ٢٥/ ٣١٩.
(٢) البرهان: ٤/ ٤٠.

في اللباب: "وذلك أنَّ كلَّ واحدٍ من المَشْهُود عليه والمشهود له قد يكُون غنيّاً، وقد يكُون فقيراً، وقد يكونان غَنِيَّيْنِ، وقد يكونان فَقيرَيْن، وقد يكون أحَدُهُمَا غنيّاً والآخر فَقِيراً؛ فلما كَانتِ الأقسام عند التَّفْصِيل على ذلك أُتِي بـ (أو) لتَدُلَّ على التَّفْصِيل؛ فعلى هذا يكون الضَّمِير في (بِهِمَا) عائداً على المَشْهُود له والمشهود عليه، على أيِّ وصفٍ كانا عليه"(١).

وقد ذكر أبو حيان الرأيين بقوله: "أي: إن يكن المشهود عليه غنياً فلا تمتنع من الشهادة عليه لغناه، أو فقيراً فلا تمنعها ترحماً عليه وإشفاقاً. فعلى هذا الجوابُ محذوف؛ لأن العطف هو بـ (أو)، ولا يثنى الضمير إذا عطف بها، بل يفرد...، وذهب الأخفش وقوم إلى أنّ (أو) في معنى (الواو)، فعلى قولهم يكون الجواب: فالله أولى بهما، أي: حيث شرع الشهادة عليهما، وهو أنظر لهما منكم"(٢).

وإذن فالرأيان محتملان، والآية تتسع لهما باستخدامها ﴿أَوْ﴾، ولو عبَّرت بـ (الواو) لما شملت معنى التفصيل الوارد في (أو).

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: ٥/ ٣٣].

حرف العطف ﴿أَوْ﴾ في الآية الكريمة يحتمل معنيين:

الأول: التخيير، والمعنى أن الإمام إن شاء قتل وإن شاء صلب، وإن شاء قطع الأيدي والأرجل، وإن شاء نفى، أي واحد من هذه الأقسام شاء فعل في كل قاطع طريق.

الثاني: التفصيل، أي لبيان اختلاف الأحكام وتَرْتِيبهَا باختلاف

(١) اللباب في علوم الكتاب: ٧/ ٦٨.
(٢) البحر المحيط: ٣/ ٣٨٥.

الجنايات؛ فإن قُطَّاع الطريق إذا قتلوا وأخَذُوا المال: قُتِلُوا وصُلِبُوا، وإذَا قَتَلُوا ولم يَأخذُوا المالَ قُتِلُوا وَلَمْ يُصْلَبُوا، وإذا أخَذُوا المال ولم يَقْتُلُوا؛ قُطِعَتْ أيديهم وأرْجُلُهم من خلافٍ، وإذا أخافُوا السَّبيل، ولم يأخُذُوا مالاً؛ نُفُوا من الأرض.

وقد انقسم العلماء في الحكم على قطاع الطرق فريقين تبعاً لفهمهم دلالة ﴿أَوۡ﴾ في الآية، يقول ابن عاشور: "وقد دلّت الآية على أمرين: أحدهما: التخيير في جزاء المحاربين؛ لأنّ أصل (أو) الدلالة على أحد الشيئين أو الأشياء في الوقوع، ويقتضي ذلك في باب الأمر ونحوه التخيير، نحو ﴿فَفِدۡيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٍۚ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٦]. وقد تمسّك بهذا الظّاهر جماعة من العلماء منهم مالك بن أنس، وسعيدُ بن المسيّب، وعطاء، ومجاهد، والنخعي، وأبو حنيفة،... وذهب جماعة إلى أنّ (أو) في الآية للتّقسيم لا للتخيير، وأنّ المذكورات مراتب للعقوبات بحسب ما اجترحه المحارب: فمن قتل وأخذ المال قُتل وصُلب، ومن لم يَقتل ولا أخذَ مالاً عُزّر، ومن أخاف الطريق نُفي، ومن أخذ المال فقط قُطع، وهو قول ابن عبّاس، وقتادة، والحسن، والسديّ، والشافعي"[(١)].

فالآية الكريمة اتسعت باستخدام ﴿أَوۡ﴾ لاحتمالين ممكنين، ترتَّب عليه اختلاف الفقهاء في استنباط الحكم التشريعي من الخطاب القرآني.

قال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٤٧].

اختلف النحاة في دلالة ﴿أَوۡ﴾ في الآية، فهي ذات احتمالات:

أولها: أنها بمعنى (بل)، جاء في شرح الرضي: " قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾، أي: بل يزيدون، وإنما جاز الإضراب بـ(بل) في كلامه تعالى؛ لأنه أخبر عنهم بأنهم مئة ألف، بناء على ما يحزر

(١) التحرير والتنوير: ٥/ ٩٤-٩٥.

الناس من غير تعمق، مع كونه تعالى عالماً بعددهم وأنهم يزيدون، ثم أخذ تعالى في التحقيق فأضرب عما يغلط فيه غيره بناء منهم على ظاهر الحزر، أي أرسلناه إلى جماعة يحزرهم الناس مئة ألف وهم كانوا زائدين على ذلك"[(١)].

ثانيها: أنها بمعنى (الواو)، يقول البغدادي: "اختلفوا في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، فقال بعض الكوفيين: بمعنى الواو، وقال آخرون منهم: المعنى بل يزيدون"[(٢)].

والثالث: أنها للشك، يقول ابن جني: "فأما قول الله سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ فلا يكون فيه ﴿أَوْ﴾ على مذهب الفراء بمعنى (بل)، ولا على مذهب قطرب في أنها بمعنى (الواو). لكنها عندنا على بابها في كونها شكاً. وذلك أن هذا كلام خرج حكاية من الله عز وجل لقول المخلوقين. وتأويله عند أهل النظر: وأرسلناه إلى جمع لو رأيتموهم لقلتم أنتم فيهم: هؤلاء مئة ألف أو يزيدون"[(٣)].

ففي الآية احتمالات جمعتها بـ ﴿أَوْ﴾، ولو عبَّرت بـ (الواو) أو بـ (بل) لاقتصرت على معنى واحد لا غير.

٨- تعدد دلالة (أي):

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ۖ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٨١-٨٢].

قد يدل الاستفهام على الإنكار، والمعنى فيه على النفي كما في قوله

(١) شرح شافية ابن الحاجب: ٤/ ٣٩٦.
(٢) خزانة الأدب: ٤/ ٧٤.
(٣) الخصائص: ٢/ ٤٦١.

تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١١١]، وقد يدلُّ على التقرير كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الشرح: ٩٤/ ١]، غير أنه في قوله تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ﴾، جاء دالاً على الإنكار والتقرير معاً، إنكار الأمن ونفيه عن المشركين، وتقريره في الوقت ذاته للمؤمنين.

يقول الزركشي: "قد يجتمع الاستفهام الواحد للإنكار والتقرير، كقوله: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ﴾، أي: ليس الكفار آمنين، والذين آمنوا أحق بالأمن. ولما كان أكثر مواقع التقرير دون الإنكار قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ "(١).

فجمع الاستفهام بـ (أيّ) معنيين مرادين، الإنكار والتقرير، بعبارة واحدة.

٩- تعدد دلالة (الباء):

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقًا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٨].

قوله تعالى ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ تحتمل هذه الباء دلالتين:

الأولى: أن تكون للسَّبب، أي: بما يوجب إثماً كاليمين الكاذبة، فتتعلَّق بقوله: ﴿لِتَأۡكُلُواْ﴾.

والثانية: أن تكون للمصاحبة، فتكون حالاً من الفاعل في ﴿لِتَأۡكُلُواْ﴾.

يقول الألوسي: "﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾، أي: بسبب ما يوجب إثماً كشهادة

---

(١) البرهان: ٢/ ٣٤٤.

الزور واليمين الفاجرة، ويحتمل أن تكون الباء للمصاحبة، أي: متلبسين بالإثم، والجار والمجرور على الأول متعلق بـ (تأكلوا)، وعلى الثاني حال من فاعله"[١]. والمعنيان عبَّرت عنهما الآية بحرف واحد، وغير بعيد أن يُرادا معاً، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٥/٦].

(الباء) في قوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ تحتمل عند النحاة والفقهاء أوجهاً:

الوجه الأول: الإلصاق، والمعنى: ألصقوا أيديكم بِرُؤُوسِكُمْ، وهذا المعنى يقتضي مسح ما مقداره مقدار اليد، وهو ربع الرأس.

الثاني: التبعيض، وعبَّر بعضهم عن هذا بموافقة (من)، يعني التبعيضية، أي: وَامْسَحُواْ بعض رُؤُوسِكُمْ.

والثالث: أنها زائدة تفيد التوكيد، والمعنى: وَامْسَحُواْ رُؤُوسَكُمْ.

جاء في فتح القدير: "قوله: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ قيل: الباء زائدة، والمعنى: امسحوا رُؤُوسَكُمْ، وذلك يقتضي تعميم المسح لجميع الرأس. وقيل: هي للتبعيض، وذلك يقتضي أنه يجزئ مسح بعضه. واستدل القائلون بالتعميم بقوله تعالى في التيمم: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ﴾ ولا يجزئ مسح بعض الوجه اتفاقاً. وقيل: إنها للإلصاق، أي ألصقوا أيديكم بِرُؤُوسِكُمْ"[٢].

---

(١) روح المعاني: ٢/ ٦٩.
(٢) فتح القدير: ٢/ ١٧.

وثمة وجه رابع مفاده الاستعانة مع تقدير حذف وقلب، يقول ابن هشام في معاني الباء: "الحادي عشر: التبعيض، أثبت ذلك الأصمعيّ والفارسي والقُتبيُّ وابن مالك، قيل: والكوفيون،... قيل: ومنه ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾، والظاهر أن الباء فيهن للإلصاق، وقيل: هي في آية الوضوء للاستعانة، وإن في الكلام حذفاً وقلباً، فإنّ (مسحَ) يتعدّى إلى المزال عنه بنفسه، وإلى المزيل بالباء، فالأصل: امسحوا رؤوسكم بالماء، ونظيره بيت الكتاب:

كنواحِ ريشِ حمامةٍ نجديّة   ومسحت باللّثتينِ عَصفَ الإثمدِ

يقول: إن لثاتك تضربُ إلى سُمرة؛ فكأنك مسحتها بمسحوق الإثمد، فقلب معمولي مسحَ"[(١)].

وقد اختلف الفقهاء في مقدار المسح في الوضوء؛ فالمشهور من مذهب الشافعي وجوب أدنى ما يُطلق عليه اسم المسح، والمشهور من مذهب أبي حنيفة مسح ربع الرأس، أما الإمام مالك فالواجب عنده التعميم، يقول البيضاوي: "اختلف العلماء في قدر الواجب؛ فأوجب الشافعي -رضي الله تعالى عنه- أقلَّ ما يقع عليه الاسم أخذاً باليقين، وأبو حنيفة -رضي الله تعالى عنه- مسح ربع الرأس؛ لأنه عليه الصلاة والسلام مسح على ناصيته وهو قريب من الربع، ومالك -رضي الله تعالى عنه- مسح كله أخذاً بالاحتياط"[(٢)].

ومردُّ اختلاف الفقهاء إلى اختلافهم في دلالة (الباء)، يقول ابن عطية: "والباء في قوله: ﴿بِرُءُوسِكُمۡ﴾ مؤكدة زائدة عند من يرى عموم الرأس، والمعنى عنده: وامسحوا رؤوسكم، وهي للإلزاق المحض عند

---

(١) مغني اللبيب: ١٤٣.

(٢) أنوار التنزيل: ٢/ ٣٠٠.

من يرى إجزاء بعض الرأس، كأن المعنى: أوجدوا مسحاً برؤوسكم؛ فمن مسح شعرة فقد فعل ذلك"[١].

فتأمَّل كيف اتسعت الآية الكريمة بحرف واحد لأربعة معانٍ مختلفة، تبعها اختلاف الفقهاء في استنباط حكم فقهي من كتاب الله الحكيم في نظمه وإعجازه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٧].

في دلالة (البَاءِ) في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها ظرفية بمعنى (في)، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود على البلد، أي: فَأَنزَلْنَا في البلد الْمَاء.

والثاني: أنَّهَا سببيَّةٌ، والضمير للسحاب، أي: فأنزلنا الماء بسبب السَّحَابِ.

يقول أبو حيان: "الظاهر أنّ الباء ظرفية، والضمير عائد على بلد ميت، أي: فأنزلنا فيه الماء، وهو أقرب مذكور ويحسن عوده إليه فلا يجعل لأبعد مذكور، وقيل: الباء سببيّة، والضمير عائد على السحاب"[٢].

أما الوجه الثالث فقيل: إنها بمعنى (مِنْ)[٣]، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود على السحاب، أي: فأنزلنا من السَّحَابِ الماء.

---

(١) المحرر الوجيز: ٢/ ١٦٣.
(٢) البحر المحيط: ٤/ ٣٢١.
(٣) انظر فتح القدير: ٢/ ٢١٤.

والاحتمالات الثلاثة قد تكون مرادة معاً في الآية، ولو قال (فَأَنزَلْنَا منه أو فيه) لقصر الآية على معنى واحد، ولم تؤدِّ ما أدَّته الباء في هذا السياق.

١٠- تعدد دلالة (حتى):

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٤٩/٩].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ يفيد دلالتين في الآية الكريمة:

الأولى: دلالتها على علة القتال، أي بمعنى (كي)، والتقدير: فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي كي تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ الله.

والثانية: دلالتها على الغاية، أي بمعنى (إلى)، والتقدير: فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي إلى أن تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ الله.

يقول الأزهري: "وقد تكون ﴿حَتَّىٰ﴾ في الموضع الواحد تحتملهما، أي: المعنيين، معنى إلى، ومعنى كي، كقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ﴾ يحتمل أن يكون المعنى على الغاية، أو التعليل، أي: إلى أن تفيء، أو كي تفيء"[١].

فالتعبير بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ أكسب الآية معنيي العلَّة والغاية، ولو كان التعبير بـ (كي) أو (إلى أن) لما أفاد غير إحدى الدلالتين.

---

(١) مُوَصِّل الطلاب إلى قواعد الإعراب: ١٠٦، الأزهري، خالد بن عبد الله (٩٠٥هـ)، تح: د. عبد الكريم مجاهد. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م. وانظر مغني اللبيب: ١٦٩.

١١- تعدد دلالة (الفاء):

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٥].

تدل (الفاء) في قوله: ﴿فَتَكُونَا﴾ في هذه الآية، وفي الأعراف، على معنيين:

الأول: العطف، فيكون ما بعدها مجزوماً معطوفاً على ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾، ويكون النهي عن الاقتراب وعن الظلم، أي: لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ولا تَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ.

الثاني: السبب، ويكون الفعل بعدها منصوباً بـ (أن) مضمرة وجوباً بعد الفاء، والنهي عن الاقتراب المؤدي للظلم.

يقول الزركشي: "﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٥]. يحتمل أن يكون ما بعد الفاء مجزوماً، ويحتمل أن يكون منصوباً. وإذا كان مجزوماً كان داخلاً في النهي، فيكون قد نهى عن الظلم كما نهى عن قربان الشجرة، فكأنه قال: لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَلا تَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ"[(١)].

فالفاء في هذا السياق أفادت معنيين مرادين في الآية، والله أعلم، هما النهي عن الاقتراب من الشجرة والظلم مجتمعين في (فاء السبب)، ومتفرقين كلّ على حدة في (فاء العطف)، فقامت عبارة مقام عبارتين بحرف واحد.

---

(١) البرهان: ٤/ ١٤٤.

قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١٢٩].

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ فيها وجهان:

أحدهما: أنها السببية، والفعل بعدها مَنْصُوب بإضْمَارِ (أنْ) جَواباً للنَّهْي.

والثاني: أنها العاطفة، والفعل مَجْزُوم عَطْفاً على الفِعْل قبله، أي: فَلَا تَمِيلُواْ ولا تَذَرُوهَا.

يقول أبو حيان: "﴿فَتَذَرُوهَا﴾ يحتمل أن يكون مجزوماً عطفاً على ﴿تَمِيلُواْ﴾، ويحتمل أن يكون منصوباً بإضمار (أنْ) في جواب النهي"[(١)].

ففي الآية الكريمة اتساع لمعنيين باستخدام (الفاء): بيان علة الترك، وفيه نَهْيٌ عن الجمع بين الميل والترك، وعطف الترك على الميل، وفيه نهيٌ عن الميل وعن الترك، كلٍّ على حِدَة، وهو أبلغُ، فكسبت الآية المعنيين بحرف واحد هو الفاء.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ١٠/ ٨٨].

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ﴾ يحتمل دلالتين مختلفتين باختلاف دلالة (الفاء)؛ إذ تحتمل وجهين:

أحدهما: أن تكون عاطفة، والتقدير: ربنا ليضلوا عن سبيلك ويستمر إضلالهم حتى يروا العذاب الأليم.

---

(١) البحر المحيط: ٣/ ٣٨١.

والثاني: أن تكون سببية تبين علَّة الدعاء قبلها، والتقدير: اطبع على قلوبهم وقسِّها حتى لا يؤمنوا؛ فإنها تستحق ذلك.

يقول البيضاوي: "﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ جواب للدعاء، أو دعاء بلفظ النهي، أو عطف على ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ وما بينهم دعاء معترض[١].

ويقول ابن عاشور: "وهذا إيجاز بديع؛ إذ جمع في هذا التركيب جواب الدعاء وبيانَ علة الدعاء عليهم بذلك، وأصل الكلام: فيؤمنوا فإنهم لا يؤمنون إلا إذا رأوا العذاب الأليم،... ويجوز أن يكون قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ﴾ إلخ عطفاً على قوله: ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ وجملة الدعاء بينهما معترضة، والمعنى: ليضلوا عن سبيلك فيستمر ضلالهم حتى يروا العذاب الأليم"[٢].

فقد أكسبت (الفاء) الآية معنيين في وقت واحد، قامت مقامهما؛ فاستغنى النظم الكريم بالفاء عن ذكر جملتين مختلفتين.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٩].

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ في هذه الآية الكريمة -وفي نظائرها من سور أخرى[٣] - تحتمل دلالتين:

الأولى: أن تكون عاطفة، والفعل بعدها مجزوم؛ لأنه معطوف على ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾، أي: ألم يسيروا ويروا، والمعنى على إثبات السير والنظر تقريراً وتوبيخاً، يقول أبو السعود: "﴿فَيَنظُرُواْ﴾ عطفٌ على يسيروا داخلٌ

(١) أنوار التنزيل: ٣/ ٢١٢.
(٢) التحرير والتنوير: ١١/ ١٦٦.
(٣) انظر: الروم ٣٠/ ٩، فاطر ٣٥/ ٤٤، غافر ٤٠/ ٢١ و٨٢، محمد ٤٧/ ١٠.

في حكمِ التَّقريرِ والتَّوبيخِ، والمعنى أنَّهم قد سارُوا في أقطارِ الأرضِ وشاهدُوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ "[١].

الثانية: أن تكون لبيان السبب، والفعل بعدها منصوب؛ لتقدُّم النفي، على غرار قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٢٢/٤٦]، والمعنى على نفي السير والنظر، أي: إنهم لم يسيروا فكيف ينظرون؟ يقول أبو حيان: "﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ فاحتمل أن يكون حثاً على السفر ليشاهدوا مصارع الكفار فيعتبروا، أو يكونوا قد سافروا وشاهدوا فلم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا"[٢].

ويرى أبو حيان أن نصب الفعل ﴿فَيَنظُرُوا﴾ سببه جواب النفي، يقول: "وجاز أن يكون ﴿فَيَنظُرُوا﴾ مجزوماً عطفاً على يسيروا، وأن يكون منصوباً على جواب النفي"[٣]. أما ابن عادل في (اللباب) فيؤثر أن يكون سبب النصب جواب الاستفهام، يقول: "قوله ﴿فَيَنظُرُوا﴾ يجوز أن يكون منصوباً في جواب الاستفهام، وأن يكون مجزوماً نَسَقاً على ما قبله كقوله:

أَلَمْ تَسْأَلْ فَتُخْبِرْكَ الرُّسُومُ

رواه بعضهم بالجزم، والنصب"[٤].

والخلاصة أن الآية الكريمة اتسعت بالفاء لمعنيين متباينين: أحدهما: أنهم ساروا ورأوا، ولكنهم لم يعتبروا، فكأنهم لم يسيروا، والآخر: أنهم لم يسيروا ولم يروا، فيحثهم على السير والاعتبار، ولو قال: أَفَلَمْ يَسِيرُواْ ويَنظُرُواْ، لما أفاد غير المعنى الأول.

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٧/ ٥٢.
(٢) البحر المحيط: ٦/ ٣٤٩.
(٣) نفسه: ٧/ ٤٣٩.
(٤) اللباب في علوم الكتاب: ١٧/ ٣٥.

١٢- تعدد دلالة (اللام):

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ١٠/ ٨٨].

(اللام) في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ﴾ تحتمل ثلاثة أوجه في المعنى:

أولها: أن تكون لام العاقبة، والفعل منصوب، أي: آتيتهم زينة وأموالاً ليصير أمرهم إلى الضلال.

والثاني: أن تكون اللام للتعليل، والفعل كذلك منصوب، والمعنى على الاستدراج؛ لأنهم جعلوا النعمة سبباً للضلال.

يقول البيضاوي: "اللام للعاقبة وهي متعلقة بـ ﴿ءَاتَيْتَ﴾، ويحتمل أن تكون للعلة؛ لأن إيتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال، ولأنهم لما جعلوها سبباً للضلال فكأنهم أوتوها لِيُضِلُّوا"(١).

أما الوجه الثالث فهو لام الدعاء، ويكون الفعل بعدها مجزوماً بها، كأنه قال: ليثبتُوا على ما هم عليه من الضلال، وليكونُوا ضُلَّالاً.

يقول ابن هشام في معاني اللام: "السابع عشر: الصيرورة وتسمى لام العاقبة ولام المآل... ويحتمله ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ﴾ [يونس: ١٠/ ٨٨]، ويحتمل أنها لام الدعاء فيكون الفعل مجزوماً لا منصوباً"(٢).

---

(١) أنوار التنزيل: ٣/ ٢١٢.

(٢) مغني اللبيب: ٢٨٢-٢٨٣.

ففي الآية الكريمة حرف واحد اتسعت به الآية لثلاثة معانٍ مختلفة، الدعاء والتعليل والصيرورة، ولعلها مرادة جميعاً، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٥٤-٥٥].

وكذلك الأمر في اللام في قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ﴾ في هذه الآية وفي سورة الروم؛ إذ تحتمل التعليل، والصيرورة، والفعل في الحالتين منصوب، وتحتمل الأمر على سبيل التهديد، كما في قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٠] فيكون الفعل مجزوماً لا منصوباً.

جاء في اللباب: "قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ﴾ في هذه اللام ثلاثة أوجهٍ: أحدها: أن تكون لام كي، وهي متعلقة بـ ﴿يُشْرِكُونَ﴾، أي: إن إشراكهم سببه كفرهم به. الثاني: أنَّها لام الصَّيرورةِ، أي: صار أمرهم إلى ذلك. الثالث: أنَّها لام الأمر، وإليه نحا الزمخشريُّ"(١).

فـ (اللام) أدَّت ثلاثة معانٍ محتملة بعبارة واحد، ولو عبَّرت الآية بـ (كي) بدل (اللام) لما أفادت غير معنى التعليل، ولاحتجنا إلى جملتين أخريين؛ لنعبِّر عن احتمالات المعنى في الآية.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٥-٦٦].

(اللام) في قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ﴾ تحتمل كذلك وجهين:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب: ١٢/ ٨٤.

أولهما: التعليل، والفعل بعدها منصوب، أي: سَيُشْرِكُونَ لِيَكُونَ إشراكُهُم كفراً بنعمة الإنجاء، وَلِيَتَمَتَّعُوا بسبب الشرك، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وبال عملهم.

والثاني: الأمر، ومعناه التهديد والتوعيد، والفعل مجزوم، أي: ليجحدوا نعمة الله في إنجائه إياهم فسيعلمون فساد ما يعملون.

يقول أبو حيان: "والظاهر في ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ أنها لام كي، وعطف عليه ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ في قراءة من كسر اللام وهم: العربيان ونافع وعاصم، والمعنى: عادوا إلى شركهم لِيَكْفُرُوا، أي: الحامل لهم على الشرك هو كفرهم بما أعطاهم الله تعالى، وتلذذهم بما متعوا به من عرض الدنيا، بخلاف المؤمنين؛ فإنهم إذا نجوا من مثل تلك الشدة، كان ذلك جالباً شكر الله تعالى، وطاعة له مزدادة. وقيل: اللام في ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ لام الأمر، ويؤيده قراءة من سكن لام (ولْيتمتعوا) وهم: ابن كثير، والأعمش، وحمزة، والكسائي؛ وهذا الأمر على سبيل التهديد، كقوله ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٠]"[(١)].

فاستخدام (اللام) في الآية وسع دلالتها لتشمل الأمر والتعليل، ولو كان بدلاً منها (كي) أو أسلوب الأمر لما أفادت الآية غير أحد المعنيين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ١٠٠/ ٦-٨].

اللام في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ [العاديات: ١٠٠/ ٨] متعلقة بـ (شديد)، وفيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها لام العلة، أي: وإنه لشديد لأجل حبِّ المالِ، يقول

(١) البحر المحيط: ٧/ ١٥٥.

أبو حيان: "اللام في (لِحُبِّ) لام العلة، أي: وإنه لأجل حب المال لبخيل"[(١)].

الثاني: أنها لام التعدية، والمعنى: وإنه لقوي مطيق لحب المال، يقال: هو شديد لهذا الأمر، أي: مطيق له، يقول أبو حيان أيضاً: "وإنه لحب المال وإيثاره قوي مطيق، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمه ضعيف متقاعس. تقول: هو شديد لهذا الأمر وقوي له إذا كان مطيقاً له ضابطاً. قال الزمخشري: أو أراد: وإنه لحب الخيرات غير هَشٍّ منبسط، ولكنه شديد منقبض"[(٢)].

الثالث: أنها لام التقوية، والمعنى: وإنه شديد لحب الخير، جاء في روح المعاني: "أي إنه شديد لحب الخير، كقولك: (إنه لزيد ضروب) في (إنه ضروب لزيد)، وظاهر التمثيل أنه اعتبر حب الخير مفعولاً به لشديد، وإن (شديد) اسم فاعل جيء به على فعيل للمبالغة، وإن اللام في ﴿لِحُبِّ﴾ للتقوية"[(٣)].

والمعاني الثلاثة أفادتها الآية الكريمة وجمعتها بحرف واحد هو (اللام).

١٣- تعدد دلالة (لا):

قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ [هود: ١١/ ١-٢].

(لا) في قوله تعالى ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ في هذه الآية، وفي نظائرها[(٤)] تحتمل معنيين:

---

(١) نفسه: ٨/ ٥٠٢.

(٢) نفسه: ٨/ ٥٠٢.

(٣) روح المعاني: ٣٠/ ٢١٩.

(٤) انظر: هود ١١/ ٢٦، يوسف ١٢/ ٤٠، الإسراء ١٧/ ٢٣، يس ٣٦/ ٦٠، فصلت ٤١/ ١٤، الأحقاف ٤٦/ ٢١.

الأول: أن تكون نافية لا عمل لها، والفعل منصوب بـ (أنْ).

والثاني: أن تكون ناهية جازمة، والفعل مجزوم بها، وتكون (أنْ) مفسرة.

يقول أبو حيان: "و﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ يحتمل أن يكون (أن) حرف تفسير؛ لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول وهذا أظهر؛ لأنه لا يحتاج إلى إضمار،... وقيل: (أنْ) نصبت لا تعبدوا، فالفعل خبر منفي"(١). فاجتمع في الآية الكريمة معنيي النفي والنهي باستخدام (لا).

قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٢٩-٣١].

كذلك (لا) في قوله تعالى ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ تحتمل معنيين: أن تكون نافية لا عمل لها، وناهية جازمة، والفعل مجزوم بها، وتكون (أنْ) مفسرة.

جاء في معاني القرآن: "وقوله جل وعز ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ أي: ألَّا تتكبروا، ويجوز أن يكون المعنى: بألَّا تعلوا علي، أي كتب بترك العلو، ويجوز على مذهب الخليل وسيبويه أن تكون (أنْ) بمعنى (أي) مفسرة، كما قال: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ [ص: ٣٨/ ٦]"(٢).

ويقول ابن هشام: "ليس من أقسام ﴿أَلَّا﴾ التي في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾، بل هذه كلمتان أن الناصبة

(١) البحر المحيط: ٥/ ٢٠١-٢٠٢.

(٢) معاني القرآن الكريم: ٥/ ١٣٠، النحاس، أبو جعفر، أحمد بن محمد بن إسماعيل، تح: محمد علي الصابوني. جامعة أم القرى، مكة المرمة، ط١، ١٤٠٩هـ.

ولا النافية، أو أن المفسرة أو المخففة من الثقيلة ولا الناهية، ولا موضع لها على هذا"[١]. فاستخدام (لا) أفاد في الآية الكريمة معنيي النفي والنهي بأوجز عبارة.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٧-٨].

ومثلها (لا) في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾؛ فإنها تحتمل النفي، والفعل منصوب بـ (أنْ). وتحتمل النهي، والفعل مجزوم بها، وتكون (أنْ) مفسِّرة.

يقول ابن عطية: "وقوله ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟﴾ نهي عن التعمد الذي هو طغيان بالميزان،... و(أن لا) هو بتقدير لئلا، أو مفعول من أجله، و﴿تَطْغَوْا۟﴾ نصب. ويحتمل أن تكون (أنْ) مفسِّرة، فيكون ﴿تَطْغَوْا۟﴾ جزماً بالنهي"[٢]. وبهذا نجد أن الآية الكريمة اتسعت باستخدام (لا) لمعنيي النفي والنهي من أقرب سبيل.

قال تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ٩٠/ ١-١١].

إنَّ دخول (لا) على الفعل ﴿ٱقْتَحَمَ﴾ أكسب الخطاب القرآني في هذه الآية مساحة واسعة من الدلالات المحتملة، بل المجتمعة في نظم هذه السورة الكريمة، فهي من حيث الأسلوب تحتمل الإنشاء والخبر، ومن

---

(١) مغني اللبيب: ١٠٣.

(٢) المحرر الوجيز: ٥/ ٢٢٥.

حيث المضمون تجمع أربع دلالات على النحو الآتي:

الدلالة الأولى: أن تكون (لا) نافية للفعل الماضي، والمعنى على الإخبار بأن هذا الإنسان الذي أنعم الله عليه باللسان والشفتين وهدايته النجدين، لم يشكر تلك النعم باقتحام العقبة، أي: بإنفاق ماله في فكِّ الرقاب وإطعام الطعام، يقال: اقتحم الرَّجُلُ في الأَمرِ رَمَى بنفسه فيه من غير رَوِيَّةٍ[1]، والعقبة طريق وَعْرٌ في الجبل، وفي الآيةِ استعارةٌ لهذا العمل الشاقِّ على النفسِ، وهو بذل المال، تشبيهٌ بعقبةِ الجبَلِ.

يقول أبو حيان: "والظاهر أن (لا) للنفي، وهو قول أبي عبيدة والفرّاء والزجاج، كأنه قال: وهبنا له الجوارح ودللناه على السبيل، فما فعل خيراً، أي فلم يقتحم"[2].

ويقول البيضاوي: "﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ أي فلم يشكر تلك الأيادي باقتحام العقبة وهو الدخول في أمر شديد، و﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾: الطريق في الجبل، استعارها بما فسرها عزَّ وجلّ به من الفك والإطعام في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ٩٠/ ١٢-١٦] لما فيهما من مجاهدة النفس، ولتعدد المراد بها حَسُنَ وقوع (لا) موقع (لم)؛ فإنها لا تكاد تقع إلا مكررة، إذ المعنى: فَلَا فَكَ رَقَبَةً ولا أَطْعَمَ يَتيماً أو مسكيناً"[3].

وللرازي تفصيل في مسألة تكرار (لا)، يقول: "قلما توجد (لا) الداخلة على المضي إلا مكررة، تقول: لا جنبني ولا بعدني، قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٧٥/ ٣١]، وفي هذه الآية ما جاء التكرير فما السبب فيه؟ أجيب عنه من وجوه:

---

(١) لسان العرب: (قحم).

(٢) البحر المحيط: ٨/ ٤٧١.

(٣) أنوار التنزيل: ٥/ ٤٩٣.

الأول: قال الزجاج: إنها متكررة في المعنى؛ لأن معنى ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ فلا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً، ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك، وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ٩٠/ ١٧] يدلُّ أيضاً على معنى: فَلَا اقتحم العقبة ولا آمن.

الثاني: قال أبو علي الفارسي: معنى ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ لم يقتحمها، وإذا كانت (لا) بمعنى (لم) كان التكرير غير واجب، كما لا يجب التكرير مع (لم)، فإن تكررت في موضع نحو ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ فهو كتكرر (ولم) نحو ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٧]"[1].

وأما الأخفش فيرى أن (لا) تنفي المستقبل كما تنفي الماضي، ولم يشترط التكرار أصلاً، جاء في تفسير القرطبي: "وقال الأخفش ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ أي: لم يصدق، كقوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ﴾ أي: لم يقتحم. ولم يشترط أن يعقبه بشيء آخر، والعرب تقول: لا ذهب، أي: لم يذهب. فحرف النفي ينفي الماضي كما ينفي المستقبل، ومنه قول زهير:

فـــلا هـــو أبـــداهـــا ولـــم يـــتـــقـــدم"[2]

والدلالة الثانية: أن تكون (لا) نافية لحدوث الفعل في المسقبل، والمعنى على الإخبار بأن هذا الإنسان لا يقتحم العقبة، جاء في روح المعاني: "قيل: الكلام إخبار عن المستقبل فليس مما يلزم فيه التكرير، أي: فلا يقتحم العقبة؛ لأن ماضيه معلوم بالمشاهدة، فالأهم الإخبار عن حاله في الاستقبال، لكن لتحقق الوقوع عبر بالماضي"[3].

الدلالة الثالثة: أن في الكلام استفهاماً إنكارياً، يقول القرطبي: "معنى الكلام الاستفهام الذي معناه الإنكار، تقديره: أفلا اقتحم العقبة؟

---

(١) التفسير الكبير: ٣١/ ١٦٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٩/ ١١٣-١١٤.

(٣) روح المعاني: ٣٠/ ١٣٩.

obeikandi.com

أو هلا اقتحم العقبة؟ يقول: هلا أنفق ماله في فك الرقاب وإطعام السغبان ليجاوز به العقبة فيكون خيراً له"[١].

والدلالة الرابعة: أن في الكلام دعاء على ذلك الكافر ألّا يرزقه الله تعالى ذلك الخير، يقول أبو حيان: "وقيل: هو جار مجرى الدعاء، كقوله: لا نجا ولا سلم، دعاء عليه ألّا يفعل خيراً"[٢].

فالخطاب القرآني في هذه الآية الكريمة جمع أربع دلالات محتملة بل مرادة في آن واحد؛ فقد نفى اقتحام العقبة في الماضي والمستقبل، واستفهم وحضَّ ودعا، كل ذلك بحرف واحد هو (لا)، يقول د. فاضل: "فانظر كيف جمع هذا التعبير هذه المعاني، وكلها مرادة مطلوبة، وأنه لو جاء بأي حرف آخر غير (لا) لم يفد هذه المعاني الكثيرة المتعددة؛ فهو لو قال (ما اقتحم العقبة) أو (لم يقتحم العقبة) لم يفد إلا الإخبار عنه في الماضي. فانظر كيف وسَّعت (لا) المعنى وجمعت معاني عدة في تعبير واحد؟"[٣].

١٤- تعدد دلالة (لمَّا):

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٣٢/ ٢٤].

﴿لَمَّا﴾ في قوله تعالى ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ تحتمل معنيين:

أحدهما الجزاء، بتعليق جعلهم أئمة على صبرهم.

والثاني: الظرف الزماني، وفيه دلالتان بحسب تعليق الظرف، فيصح أن يكون جعلهم أئمة حين صبروا، أو يهدون حين صبروا.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٦٦.
(٢) البحر المحيط: ٨/ ٤٧١.
(٣) الجملة العربية والمعنى: ١٦٩-١٧٠.

جاء في روح المعاني: " ﴿لَمَّا﴾ يحتمل أن تكون هي التي فيها معنى الجزاء، نحو: لما أكرمتني أكرمتك. أي: لَمَّا صَبَرُوا جَعَلْنَاهم أَئِمَّةً. ويحتمل أن تكون هي التي بمعنى الحين الخالية عن معنى الجزاء، والظاهر أنه حينئذ ظرف لجعلنا، أي: جعلناهم أئمة حين صبروا، وجوز أبو البقاء كونها ظرفاً ليهدون"(١).

١٥- تعدد دلالة (ما):

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٢].

(مَا) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ تحتمل وجهين في المعنى:

أولهما: أن ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى (الذي)، ومحلّها النصب عطفاً على ﴿ٱلسِّحْرَ﴾، والتقدير: يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ. أو النصب لكن عطفاً على ﴿مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، والتقدير: وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ. وعلى هذا فما بينهما اعتراض. أو الجر عطفاً على ﴿مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾، والتقدير: افتراء على ملك سليمان وافتراء على ما أنزل على الملكين.

والثاني: أن ﴿مَا﴾ حرف نفي، والجملة معطوفة على الجملة المنفية قَبْلَها، والمعنى: وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ إباحة السحر.

يقول أبو حيان: " ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ ظاهره أن ﴿مَا﴾ موصول اسمي منصوب، وأنه معطوف على قوله: ﴿ٱلسِّحْرَ﴾، وظاهر العطف التغاير، فلا يكون ما أنزل على الملكين سحراً. وقيل: هو معطوف على ﴿مَا تَتْلُوا۟

(١) روح المعاني: ٢١/ ١٣٨.

ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، أي: وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ والذي أُنْزِلَ. وظاهره أن ما علموه الناس أو ما اتبعوه هو منزل... وقيل: ما في موضع جر عطفاً على ﴿مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾، والمعنى: افتراء على ملك سليمان وافتراء على ما أنزل على الملكين، وهو اختيار أبي مسلم، وأنكر أن يكون الملكان نازلاً عليهما السحر، قال: لأنه كفر والملائكة معصومون، ولأنه لا يليق بالله إنزاله، ولا يضاف إليه؛ لأن الله يبطله، وإنما المنزل على الملكين الشرع، وإنهما كانا يعلمان الناس ذلك. وقيل: ﴿مَا﴾ حرف نفي، والجملة معطوفة على ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾، وذلك أن اليهود قالوا: إن الله أنزل جبريل وميكال بالسحر، فنفى الله ذلك"[1].

ففي الآية اتساع لأربعة احتمالات ممكنة في المعنى ولعلها مرادة جميعاً في الخطاب القرآني، كل ذلك بحرف واحد، ولو قال: (ولم ينزل) بدل ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ لقصر العبارة على معنى واحد هو النفي.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٥].

قولُهُ: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ في (ما) احتمالان سائغان:

أحدها: أَنَّها نكرةٌ تامَّةٌ، ومعناها التعجُّب، فإذَا قُلْتَ: (مَا أَحْسَنَ زَيْداً)، فمعناهُ: شيءٌ صَيَّرَ زَيْداً حَسَناً.

الثاني: أَنَّهَا استفهاميَّةٌ صَحِبَها معنى التعجُّب؛ نحو: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢/٢٨]، معناها: ما الَّذي صَبَّرهم على النَّار؟ وأيُّ شيء صَبَّرهم على النَّار؛ حتى تَركوا الحَقَّ، واتبعوا البَاطِلَ.

جاء في مشكل إعراب القرآن: "قوله: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ ما: في موضع رفع بالابتداء وما بعدها خبرها، ويحتمل أن تكون استفهاماً،

(١) البحر المحيط: ١/ ٤٩٧.

وأن تكون تعجباً يعجب الله المؤمنين من الكفار على عمل يقربهم إلى النار وكذلك معنى الاستفهام"[(١)].

ويقول أبو السعود: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ تعجيبٌ من حالهم الهائلة التي هي ملابستُهم بما يوجب النارَ إيجاباً قطعياً كأنه عينها. و (ما) عند سيبويهِ نكرةٌ تامة مفيدة لمعنى التعجيب مرفوعةٌ بالابتداء... خبرُها ما بعدها، أي: شيءٌ ما عظيم جعلهم صابرين على النار، وعند الفراء استفهامية وما بعدها خبرها، أي: أيُّ شيءٍ أصبرَهم على النار؟"[(٢)].

فانظر كيف اتسعت الآية الكريمة لمعنيي التعجيب والاستفهام إذ جمعتهما بحرف واحد.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٤/ ٦٥].

(مَا) في قوله تعالى ﴿مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ تحمل ثلاث دلالات محتملة:

أولاها: المصدرية، والمعنى: لَا يَجِدُواْ حَرَجاً من قضاء قَضَيْتَه.

الثانية: أن تكُون موصولة بمَعْنى الَّذِي، والمعنى: لَا يَجِدُواْ حَرَجاً من الَّذي قضَيْتَهُ.

والثالثة: أن تكون نكرة موصوفة بمعنى شيء، أي: لَا يَجِدُواْ حَرَجاً من شيء قضَيْتَهُ، أو قضَيْتَ به.

يقول الألوسي: "و (ما) يحتمل أن تكون موصولة ونكرة موصوفة ومصدرية، أي: من الذي قضيته أي قضيت به، أو من شيء قضيت، أو من قضائك"[(٣)].

---

(١) مشكل إعراب القرآن: ١/ ١١٧.

(٢) إرشاد العقل السليم: ١/ ١٩٢.

(٣) روح المعاني: ٥/ ٧١.

فاستخدام (مَا) في هذا السياق أكسب العبارة اتساعاً في المعنى يغني عن ذكر ثلاث عبارات مختلفة؛ إذ عبَّر عنها مجتمعة بـ (مَا) التي أفادت معاني الموصول والمصدر والنكرة المشار إليها.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٧].

قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ يجوزُ في (ما) أن تكون مصدرية ظرفيةً، أي: فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم، ويجوزُ أن تكون شرطيةً، والتقدير: أيّ زمانٍ استقاموا لكم فاستقيموا لهم.

جاء في روح المعاني: "و(ما) - كما قال غير واحد - إما مصدرية منصوبة المحل على الظرفية بتقدير مضاف، أي: فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم. وإما شرطية منصوبة المحل على الظرفية الزمانية، أي: أيَّ زمان استقاموا لكم فاستقيموا لهم"(١). وكلاهما محتمل وصحيح، استعانت الآية الكريمة للتعبير عنهما بحرف واحد أغنى عن جملتين.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ١٢/ ٢٥].

قوله: ﴿مَا جَزَآءُ﴾ يجوز في ﴿مَا﴾ هذه أن تكون نافية، أي: ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب الأليم، وأن تكون استفهاميَّة، يعني: أيّ جزاء يستحقه من أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً؟ ثم أجابت عن استفهامها بقولها: ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾.

يقول الرازي: " ﴿مَا﴾ يحتمل أن تكون نافية، أي ليس جزاؤه

(١) نفسه: ١٠/ ٥٥.

إلا السجن، ويجوز أيضاً أن تكون استفهامية يعني: أي شيء جزاؤه إلا أن يسجن؟ كما تقول: من في الدار إلا زيد؟ "[١]. فعبَّرت الآية الكريمة عن معنيي النفي والاستفهام بحرف واحد.

قال تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٤].

قوله تعالى: ﴿بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ يجوز في (مَا) وجهان:

أحدهما: أن تكون بمعنى الذي، أي: بالذي تؤمر به من الشرائع.

والثاني: أن تكون (ما) مصدرية أي فاصدع بأمرك وشأنك.

يقول ابن هشام: " ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ (ما) مصدرية، أي: بالأمر، أو موصول اسمي، أي: بالذي تؤمره"[٢]. وجاء في روح المعاني: "و(مَا) جاز أن تكون موصولة والعائد محذوف أي بالذي تؤمر به فحذف الجار فتعدى الفعل إلى الضمير فصار تؤمره ثم حذف، وقيل: التقدير فاصدع بما تؤمر بالصدع به"[٣].

فالتعبير بـ (مَا) أكسب الآية معنيي الموصول والمصدر، ولو كانت العبارة (فاصدع بالذي تؤمر)، أو (فاصدع بأمرك) لما أفادت كل واحدة إلا معنى واحداً، ولكن (مَا) أغنت بمفردها عن عبارتين مجتمعتين.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ [الكهف: ١٨/ ١٦].

و(مَا) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ تحتمل ثلاثة معانٍ متفرقة في التفسير، مجتمعة في نظم الآية الكريمة أيما اجتماع، وهي:

---

(١) التفسير الكبير: ١٨/ ٩٨.

(٢) مغني اللبيب: ٧٣٦.

(٣) روح المعاني: ١٤/ ٨٥.

الأول: أن تكون موصولة، والتقدير: وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم الذين يعبدونهم إلا الله تعالى.

الثاني: أن تكون مصدرية، والتقدير: وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم عبادتهم إلا عبادة الله تعالى.

والثالث: أن تكون نافية، والضمير في ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ يعود على الفتية إخباراً عن عقيدتهم.

يقول أبو السعود: " ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ عطف على الضمير المنصوب و(ما) موصولة أو مصدرية، أي: إذ اعتزلتموهم ومعبوديهم إلا الله، أو وعبادتهم إلا عبادة الله، وعلى التقديرين فالاستثناء متصل على تقدير كونهم مشركين كأهل مكة، ومنقطع على تقدير تمحضهم في عبادة الأوثان. ويجوز كون (ما) نافية على أنه إخبار من الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترض بين إذ وجوابه"[(١)].

للمفسرين أن يقولوا: إن الآية تحتمل هذا الوجه أو هذا أو ذاك، ولكن الذي يبدو - والله أعلم - أن هذه الاحتمالات الثلاثة، مع ما فيها من احتمالي الاتصال والانقطاع في الاستثناء تنطوي مجتمعة بمعانيها المختلفة بحرف واحد في بلاغة الخطاب القرآني وإعجازه.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٩].

قوله تعالى: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يجوز في ﴿مَا﴾ أن تكون موصولاً اسمياً بمعنى (الذي)، ويجوز أن تكون شرطية، والمعنى: أيّ شيء شاءه كان.

يقول الثعالبي: "و ﴿مَا﴾ تحتمل أن تكون بمعنى الذي، بتقدير الذي

(١) إرشاد العقل السليم: ٥/ ٢١١، وأنوار التنزيل: ٣/ ٤٨٢.

شاء الله كائن، وفي شاء ضمير عائد على ﴿مَا﴾. ويحتمل أن تكون شرطية بتقدير ما شاء الله كان"[(١)]. وكلاهما صحيح مراد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ١٥].

وكذلك ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ فهي تحتمل أن تكون حرفاً مصدريّاً كما تحتمل أن تكون اسماً موصولاً.

يقول الألوسي: "و(ما) مصدرية، أي: لتجزى بسعيها وعملها إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ... وقيل: (ما) موصولة، أي: بالذي تسعى فيه، وفيه حذف العائد المجرور بالحرف مع فقد شرطه"[(٢)]. والمعنيان مرادان في الآية،عبَّرت عنهما بحرف واحد.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٦٨].

وأيضاً ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فهي تحتمل المصدرية والموصولية، جاء في روح المعاني: " ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: عن إشراكهم، على أن (ما) مصدرية، ويحتمل أن تكون موصولة بتقدير مضاف، أي: عن مشاركة ما يشركونه به، كذا قيل"[(٣)].

وكلا المعنيين له ما يؤيده ومقصود في هذه الآية الكريمة، وفي مثيلاتها، وما أكثرها!

---

(١) الجواهر الحسان: ٢/ ٣٨١.
(٢) روح المعاني: ١٦/ ١٧٣.
(٣) نفسه: ٢٠/ ١٠٥.

قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٣٦/٦].

و﴿مَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ تحتمل ثلاثة معانٍ:

الأول: أن تكون نافية، والمعنى: لِتُنذِرَ قَوْماً لم يُنذَر آبَاؤُهُمْ.

الثاني: أن تكون موصولة، والمعنى: لِتُنذِرَ قَوْماً مثل الذي أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ.

والثالث: أن تكون مصدرية، أي: لِتُنذِرَ قَوْماً إنذاراً مثل إنذار آبائهمْ الأولين.

يقول القرطبي: "(ما) لا موضع لها من الإعراب عند أكثر أهل التفسير منهم قتادة؛ لأنها نفي. والمعنى: لتنذر قوماً ما أتى آباءهم قبلك نذير. وقيل: هي بمعنى (الذي)، فالمعنى: لتنذرهم مثل ما أنذر آباؤهم، قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة أيضاً. وقيل: إن (مَا) والفعل مصدر، أي: لتنذر قوماً إنذار آبائهم"(١).

والمعاني الثلاثة محتملة يتسع لها نظم الآية الكريمة وإن رجح بعض هذه الأوجه على الآخر كما يقول ابن هشام: "والأرجح في ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أنها النافية بدليل ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٣٤/٤٤]، وتحتمل الموصولة"(٢).

قال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٣٦/٢٦-٢٧].

وكذلك (ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾ فهي تحتمل المصدرية، أي: ليتهم يعلمون بمغفرة ربي، والموصولية، أي: ليتهم يعلمون بالذي غفر به ربي.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٦.

(٢) مغني اللبيب: ٤١٥.

يقول ابن الجوزي: "وفي (ما) قولان: أحدهما: أنها مع ﴿غَفَرَ﴾ في موضع مصدر، والمعنى: بغفران الله لي. والثاني: أنها بمعنى (الذي)، فالمعنى ليتهم يعلمون بالذي غفر لي به ربي فيؤمنون، فنصحهم حيّاً وميتاً "(١).

والمعنيان مرادان عبَّرت عنهما الآية الكريمة، ولو عبَّرت الآية (بالمغفرة أو بالذي غفر به) لشحَّ المعنى وطال اللفظ؛ فانظر أي بلاغة جمعت المعنيين بحرف واحد!.

قال تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٠].

في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ عبّرت الآية الكريمة بـ (مَا) مرتين، ولكل واحدة منهما وجهان محتملان، فاتسعت الآية الكريمة لأربعة معان مجتمعة في عبارة واحدة، على النحو الآتي:

الأول: أن تكون الأولى نافية والثانية موصولة، والمعنى: لم يغنِ عنهم المال الذي كانوا يكسبونه.

الثاني: أن تكون الأولى نافية والثانية مصدرية، والمعنى: لم يغنِ عنهم كسبهم.

الثالث: أن تكون الأولى استفهامية والثانية موصولة، والمعنى: أيّ شيء أغنى عنهم المال الذي كانوا يكسبونه؟

الرابع: أن تكون الأولى استفهامية والثانية مصدرية، والمعنى: أيّ شيء أغنى عنهم كسبهم؟

يقول الرازي: "(مَا) في قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ نافية، أو مضمنة

(١) زاد المسير: ٧/ ١٤.

obeikandl.com

معنى الاستفهام، ومحلها النصب، و(ما) في قوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ موصولة، أو مصدرية، ومحلها الرفع، يعني: أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم؟"[١].

والمعاني الأربعة كلها مرادة، والله أعلم، اختزلها الخطاب القرآني بحرفين، وقد احتجنا لبيان المعنى فيهما لأربع جمل ما بلغت معشار ما بلغه التعبير القرآني في الفصاحة والإيجاز، ولا قاربت.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥-٦].

وكذلك (مَا) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ فهي تحتمل وجهين، و ﴿تُوعَدُونَ﴾ تحتمل وجهين على نحو ما رأينا سابقاً، فيتولد في الآية ثلاثة معان مجتمعة على النحو الآتي:

الأول: أن تكون (ما) اسماً موصولاً، والمعنى: إن الذي توعدونه لصادق.

الثاني: أن تكون (ما) مصدرية، والمعنى: إن وعدكم لصادق.

الثالث: أن تكون (ما) مصدرية، والمعنى: إن وعيدكم لصادق.

يقول الألوسي: "و(مَا) موصولة، والعائد محذوف، أي: إن الذي توعدونه أو توعدون به. ويحتمل أن تكون مصدرية، أي: إن وعدكم أو وعيدكم"[٢].

والمعاني الثلاثة مجتمعة مرادة في نظم الآية الكريمة، ولو قال: (إن الذي توعدونه) أو (إن وعدكم) أو (إن وعيدكم) لما أفاد في كل عبارة غير معنى واحد، ولكنه جمع ثلاثتها بحرف وفعل.

---

(١) التفسير الكبير: ٢٧/ ٧٩.

(٢) روح المعاني: ٢٧/ ٤.

obeikandl.com

قال تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾ [الحاقة: ٦٩/٢٨].

في قوله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾ عبّرت الآية الكريمة بـ ﴿مَآ﴾ مرتين، ولكل واحدة منهما وجهان محتملان، على النحو الآتي:

الأول: أن تكون الأولى نافية والثانية جزء من كلمة، والمعنى: لم يغنِ عني مالي الذي جمعته.

الثاني: أن تكون الأولى نافية والثانية موصولة، والمعنى: لم يغنِ عني الذي أملكه.

الثالث: أن تكون الأولى استفهامية والثانية جزء من كلمة، والمعنى: أيّ شيء أغنى عني مالي الذي جمعته؟

الرابع: أن تكون الأولى استفهامية والثانية موصولة، والمعنى: أيّ شيء أغنى عني الذي أملكه؟

يقول الألوسي: " ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾ أي: ما أغنى عني شيئاً الذي كان لي في الدنيا من المال ونحوه كالأتباع، على أن ﴿مَآ﴾ في ﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾ نافية و ﴿مَآ﴾ في ﴿مَالِيَهۡۜ﴾ موصولة فاعل ﴿أَغۡنَىٰ﴾، ومفعوله محذوف، و(لِيهْ) جار ومجرور في موضع الصلة. ويجوز أن يجعل ﴿مَالِيَهۡۜ﴾ عبارة عن (مال) مضاف إلى ياء المتكلم... ويجوز أن تكون ﴿مَآ﴾ في ﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾ استفهامية للإنكار و﴿مَالِيَهۡۜ﴾ على احتماليه، أي: أيّ شيء أغنى عني مالي "(١).

وهذا مثال بديع على اتساع الخطاب القرآني لأربع دلالات متفرقة بحرف وشطر كلمة.

(١) نفسه: ٢٩/٤٩، إرشاد العقل السليم: ٩/٢٦، مغني اللبيب: ٤١٥.

قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ٨٠/ ١٧].

وكذلك ﴿مَآ﴾ في قوله تعالى ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ فهي تحتمل التعجبية والاستفهامية.

جاء في البحر: "﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ الظاهر أنه تعجب من إفراط كفره، والتعجب بالنسبة للمخلوقين، إذ هو مستحيل في حق الله تعالى، أي: هو ممن يقال فيه: ما أكفره! وقيل: ﴿مَآ﴾ استفهام توقيف، أي: أي شيء أكفره؟ أي جعله كافراً، بمعنى لأي شيء يسوغ له أن يكفر"(١).

ويقول ابن عطية: "وقوله تعالى: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ يحتمل معنى التعجب، ويحتمل معنى الاستفهام توقيفاً، أي: أيّ شيء أَكْفَرَهُ، أي: جعله كافراً"(٢). فجمعت ﴿مَآ﴾ معنيي التعجب والاستفهام من أقرب سبيل.

١٦- تعدد دلالة (من):

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣].

إن (من) في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ تحتمل عند بعض المفسرين وجهين:

أولهما: معنى الجزئية، أي: يُنفِقُونَ بعض ما رزقناهم، وفي ذلك تنبيه على منع الإسراف.

والثاني: معنى الكلية، أي: يُنفِقُونَ من كل أنواع النعم التي رزقناهم.

يقول البيضاوي: "وإدخال (من) التبعيضية عليه لمنع المكلف عن

(١) البحر المحيط: ٨/ ٤٢٠.
(٢) المحرر الوجيز: ٥/ ٤٣٨.

الإسراف المنهي عنه، ويحتمل أن يراد به الإنفاق من جميع المعاون التي آتاهم الله من النعم الظاهرة والباطنة"[١].

ولا شك أن المعنيين مرادان في الآية، إذ الإنفاق جزء من كل، وينبغي أن يكون من جميع الأنواع التي أنعم الله بها على العبد، وبدل أن يقول: ينفقون جزءاً من كل نعمة أنعم الله بها عليهم، جمع المعنيين بحرف واحد فقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٥].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ تحتمل (من) أوجهاً:

الأول: التبعيض، أي: تأكلون بعضها الذي يؤكل كاللحوم والشحوم.

الثاني: ابتداء الغاية، أي: الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم.

الثالث: السبب، أي بسببها، كقولنا: فلان يأكل من حرفة يحترفها، أي: منها يحصل رزقه، والمعنى: بسببها تأكلون.

يقول الألوسي: "﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم ونحو ذلك؛ فـ (من) تبعيضية، والأكل إما على معناه المتبادر، وإما بمعنى التناول الشامل للشرب فيدخل في العد الألبان، وجوز أن تكون (من) ابتدائية، وأن تكون للتبعيض مجازاً، أو سببية، أي: تأكلون ما يحصل بسببها؛ فإن الحبوب والثمار المأكولة تكتسب باكتراء الإبل مثلاً وأثمان نتاجها وألبانها وجلودها"[٢].

---

(١) أنوار التنزيل: ١/ ١٢١-١٢٢.

(٢) روح المعاني: ١٤/ ٩٩.

وجاء في الكشاف: "الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم. وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتدّ به وكالجاري مجرى التفكه، ويحتمل أن طعمتكم منها؛ لأنكم تحرثون بالبقر، فالحبّ والثمار التي تأكلونها منها وتكتسبون بإكراء الإبل وتبيعون نتاجها وألبانها وجلودها"(١).

والمعاني الثلاثة مرادة في الآية الكريمة، يختزنها النظم القرآني بحرف واحد من حروف المعاني.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٠].

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ تحتمل وجهين:

الأول: بيان الجنس، والمعنى: اجْتَنِبُوا هذا الصنف من الأرجاس، الذي هو الأوثان.

الثاني: ابتداء الرجس، فكأنه قال: اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ ابتداءً مِنَ الأَوْثَانِ فما فوقها.

يقول القرطبي: " قيل: إنها لبيان الجنس فيقع نهيه عن رجس الأوثان فقط، ويبقى سائر الأرجاس نهيها في غير هذا الموضع. ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية، فكأنه نهاهم عن الرجس عاماً، ثم عين لهم مبدأه الذي منه يلحقهم؛ إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس"(٢). والمعنى الثاني

(١) الكشاف: ٢/ ٥٥٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٥٤.

أعم وأشمل، والأول محتمل غير بعيد، عبَّرت الآية عنهما بحرف واحد يحتمل الوجهين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ١٣].

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ تحمل وجهين محتملين، بل مجتمعين، هما:

الأول: أن تكون لابتداء الغاية، أي: كيأسهم من بعث موتاهم لاعتقادهم عدم البعث.

الثاني: أن تكون بيانية، أي: كما يئس الكفار الذين قد ماتوا منهم من الآخرة؛ لأنه قد وقفوا على الحقيقة، وعلموا أنه لا نصيب لهم في الآخرة.

يقول أبو حيان: "والظاهر أن من في ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ لابتداء الغاية، أي: لقاء أصحاب القبور. فـ ﴿مِنۡ﴾ الثانية كالأولى ﴿مِنۡ﴾ الآخرة. فالمعنى أنهم لا يلقونهم في دار الدنيا بعد موتهم. وقال ابن عرفة: هم الذين قالوا: ما يهلكنا إلا الدهر. انتهى. والكفار على هذا كفار مكة؛ لأنهم إذا مات لهم حميم قالوا: هذا آخر العهد به، لن يبعث أبداً. وهذا تأويل ابن عباس وقتادة والحسن.

وقيل: ﴿مِنۡ﴾ لبيان الجنس، أي: الكفار الذين هم أصحاب القبور، والمأيوس منه محذوف، أي: كما يئس الكفار المقبورون من رحمة الله؛ لأنه إذا كان حياً لم يقبر كان يرجى له ألَّا ييئس من رحمة الله؛ إذ هو متوقع إيمانه. وهذا تأويل مجاهد وابن جبير وابن زيد. وقال ابن عطية: وبيان الجنس أظهر. انتهى. وقد ذكرنا أن الظاهر كون (مِنْ) لابتداء الغاية، إذ لا يحتاج الكلام إلى تقدير محذوف"[(١)].

---

(١) البحر المحيط: ٨/ ٢٥٦.

فأبو حيان يرجح معنى ابتداء الغاية في ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾، في حين يرجح ابن عطية معنى بيان الجنس، والحق أن المعنيين مرادان معاً، جمعتهما بلاغة الخطاب القرآني بأوجز عبارة ومن أقرب سبيل.

١٧- تعدد دلالة (نا):

قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٨٤].

(نا) في قوله تعالى ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ تحتمل معنيين: أولهما أن تكون نون العظمة للمفرد، والآخر أن تكون ضمير الجماعة.

جاء في روح المعاني: "﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ وهو القرآن المنزل عليه ﷺ أولاً وعليهم بواسطة تبليغه إليهم، ومن هنا أتى بضمير الجمع، وقد يعتبر الإنزال عليه -عليه الصلاة والسلام- وحده، ولكن نسب إلى الجمع ما هو منسوب لواحد منه مجازاً على ما قيل. ويحتمل أن تكون النون نون العظمة لا ضمير الجماعة"[(١)]، وكلاهما صحيح ومحتمل، فاكتسبت الآية معنيين بحرف واحد.

١٨- تعدد دلالة (هل):

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق: ٥٠/ ٣٠].

قوله: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ يجوز أن يكون ذلك استدعاء للزيادة، أي: هل من مزيد فأزداد. ويجوز أن يكون تنبيهاً من حيث المعنى على أنها قد امتلأت، أَي: هل بقي فيَّ موضعٌ لم يمتلئ، أي: ما بقي فيّ موضع

(١) روح المعاني: ٣/ ٢١٤.

للزيادة، وحصل ما ذكره تعالى في قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١/ ١١٩].

يقول ابن جني: "﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ قالوا معناه: قد امتلأت. وهذا أيضاً تفسير على المعنى دون اللفظ، و﴿هَلْ﴾ مبقاة على استفهامها...، أي: أتعلم يا ربنا أن عندي مزيداً؟. فجواب هذا منه عزَّ اسمه: لا. أي: فكما تعلم أن لا مزيد فحسبي ما عندي. فعليه قالوا في تفسيره: قد امتلأت، فتقول: ما من مزيد"(١).

ففي الاستفهام بـ ﴿هَلْ﴾ في نظم الآية الكريمة معنيان: أحدهما الاستفهام على اللفظ، والآخر الجحد على المعنى، وإنما صلح هذا للوجهين لأن في الاستفهام ضرباً من الجحد.

١٩- تعدد دلالة (الواو):

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٢].

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ﴾ فيها وجهان راجحان:

الأول: أن تكون عاطفة، والنهي عن الفعلين كل على حدة، والفعلان مجزومان بالنهي، أي: لَا تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَلا تَكْتُمُواْ الْحَقَّ.

والثاني: أن تكون الواو جامعة؛ فيكون النهي عن الجمع بين الفعلين، ويكون الثاني منصوباً بـ (أن) مضمرة وجوباً، والمعنى: لا يجتمع منكم لبس وكتمان، كقول الشاعر:

لا تَنْهَ عَنْ خُلُق وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

(١) الخصائص: ٣/ ٢٦٤.

قال سيبويه في (كتابه): "إن شئت جعلت ﴿وَتَكْتُمُواْ﴾ على النهي، وإن شئت جعلته على الواو"(١)، فذكر الاحتمالين في الآية.

يقول القرطبي: "قوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿تَلْبِسُواْ﴾ فيكون مجزوماً، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أن، التقدير: لا يكن منكم لبس الحق وكتمانه، أي: وأن تكتموه"(٢).

وما يقال في دلالة الواو على معنيي العطف والمعية في هذه الآية الكريمة يقال في نظائرها كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٨]، وقوله أيضاً: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ [محمد: ٤٧/ ٣٥].

ففي هذه الآيات الكريمة حلَّ حرف واحد، هو (الواو) محل جملتين، فبدل أن يقول: (لَا تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَلا تَكْتُمُواْ الْحَقَّ. أو لا يكن منكم لبس الحق وكتمانه) قال: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ﴾ فأصاب المعنيين من أقرب سبيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٧].

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا﴾ تحتمل وجهين:

أحدهما: العطف، والمعنى: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ قائلين: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا.

والآخر: الحال، والتقدير: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ يقول: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا.

---

(١) كتاب سيبويه: ٣/ ٤٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٣٤٢.

يقول ابن هشام في حذف الحال: "أكثر ما يرد ذلك إذا كان قولاً أغنى عنه المقول، نحو: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ١٣/٢٣-٢٤]، أي: قائلين ذلك. ومثله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة: ٢/١٢٧]، ويحتمل أن (الواو) للحال، وأن القول المحذوف خبر، أي: وإسماعيل يقول"[1].

والمعنيان سائغان، أفادتهما الآية الكريمة باستخدام (الواو) الجامعة لمعنيي العطف والحال في هذا النظم الكريم.

قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ٢/١٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ في هذه الجملة ثلاثة أوجهٍ:

أحدها: أنَّها معطوفةٌ على قوله ﴿نَعْبُدُ﴾، يعني: أنها تتمّةُ جوابهم له، فأجابوه بزيادة.

والثاني: أنهَّا حال من فاعل ﴿نَعْبُدُ﴾، والعامل ﴿نَعْبُدُ﴾، كأنهم قالوا: نعبد إلهك مسلمين له بطاعتنا وعبادتنا إياه.

والثالث: ألَّا يكون لها محل، بل هي جملة اعتراضيّة مؤكدة، بمعنى نعبد إلهك بعدك ونحن له الآن وفي كل حال مسلمون.

يقول ابن عاشور: وقوله ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ جملة في موضع الحال من ضمير ﴿نَعْبُدُ﴾، أو معطوفة على جملة ﴿نَعْبُدُ﴾، جيء بها اسمية لإفادة ثبات الوصف لهم ودوامه بعد أن أفيد بالجملة الفعلية المعطوف عليها معنى التجدد والاستمرار"[2].

---

(١) مغني اللبيب: ٨٣٠.
(٢) التحرير والتنوير: ١/ ٧١٤.

ويقول أبو السعود: "﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ حال من فاعل نعبد، أو من مفعوله، أو منهما معاً، ويحتمل أن يكون اعتراضاً محققاً لمضمون ما سبق"(١).

فالآية الكريمة جمعت بين معاني العطف والحال والاستئناف بحرف الواو من أيسر الطرق.

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١٢٧].

الواو في قوله تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ فيها معنيان مرادان، هما:

الأول: العطف على النفي السابق، أي: النِّسَاء اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَلا تَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ.

والثاني: الحال بإثبات الرغبة مع النفي السابق، والمعنى: النِّسَاء اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَأنتم تَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ.

يقول العكبري: "﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ فيه وجهان؛ أحدهما: هو معطوف على (تؤتون)، والتقدير: ولا ترغبون. والثاني: هو حال، أي: وأنتم ترغبون في أن تنكحوهن"(٢).

والمعنيان مرادان، ويؤيدهما ما ذُكر في سبب النزول، جاء في اللباب: " أن الآية نزلت في تَوْفِية الصَّداق لَهُنَّ، وكانت اليتيمَةُ تكون عند الرَّجُلِ، فإن كانت جَمِيلةً ومَالَ إلَيْهَا تزوَّجَ بها وأكَلَ مالها، وإن

(١) إرشاد العقل السليم: ١/ ١٥٦.
(٢) التبيان في إعراب القرآن: ١/ ١٩٦.

كانت دَمِيمَةً منعها الأَزْوَاجَ حتى تَمُوتَ، فأنزل الله هذه الآية "[١].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأخذ الناس بالدرجة الفضلى في هذا المعنى؛ فكان إذا سأل الولي عن وليته فقيل: هي غنية جميلة. قال له: اطلب لها من هو خير منك وأعود عليها بالنفع. وإذا قيل له: هي دميمة فقيرة، قال له: أنت أولى بها وبالستر عليها من غيرك[٢].

فنجد أن الآية الكريمة أدَّت المعنيين معاً بحرف (الواو) فقط الذي يحتمل معنيي العطف والحال، فأصابهما جميعاً في هذا النظم المحكَم، غير أن للمعنيين سبيلاً آخر في الآية نفسها، نذكره في الاتساع بالحذف.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٤].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم﴾، (الواو) كذلك تحتمل ثلاثة أوجه، هي: الحال والاستئناف والعطف.

فقد ذكر العكبري أنَّ: "﴿وَتَرَكْتُم﴾ يجوز أن يكون حالاً، أي: وقد تركتم. وأن يكون مستأنفاً "[٣].

وجاء العطف والحال في التحرير والتنوير، يقول ابن عاشور: "﴿وَتَرَكْتُم﴾ عطف على ﴿جِئْتُمُونَا﴾، وهو يبيّن معنى ﴿فُرَادَىٰ﴾ إلّا أنّ في الجملة الثّانية زيادة بيان لمعنى الانفراد بذكر كيفية هذا الانفراد؛ لأنّ كلا الخبرين مستعمل في التّخطئة والتّنديم، إذ جاؤوا إلى القيامة وكانوا ينْفون ذلك المجيء، وتركوا ما كانوا فيه في الدّنيا وكان حالهم حال من ينوي الخلود. فبهذا الاعتبار عطفت الجملة ولم تفصل. وأبو البقاء جعل

(١) اللباب في علوم الكتاب: ٧/ ٤٨.
(٢) المحرر الوجيز: ٢/ ١١٨.
(٣) التبيان في إعراب القرآن: ١/ ٢٥٤.

الجملة حالاً من الواو في ﴿جِئْتُمُونَا﴾، فيصير ترك ما خوّلوه هو محلّ التّنكيل"[(١)]. وثلاثة المعاني لها ما يسوغها، عبَّرت الآية عنها مجتمعة بحرف الواو.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢٧].

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ﴾ تحتمل وجهين في المعنى:

أولهما: أنَّها واو العطف، عطفت ﴿وَيَذَرَكَ﴾ على ﴿لِيُفْسِدُوا۟﴾.

والثاني: أنَّها واو المعية، والمعنى: أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ مع تركهم إياك وَآلِهَتَكَ؟

يقول أبو حيان: "وقرأ الجمهور (ويَذَرَكَ) بالياء وفتح الراء عطفاً على ﴿لِيُفْسِدُوا۟﴾، أي: للإفساد ولتركك وترك آلهتك،... ويجوز أن يكون النصب على جواب الاستفهام، والمعنى: أنى يكون الجمع بين تركك موسى وقومه للإفساد، وبين تركهم إياك وعبادة آلهتك؟ أي: إنّ هذا مما لا يمكن وقوعه"[(٢)]. والمعنيان سائغان، أوجزت الآية التعبير عنهما بحرف واحد قام مقام جملتين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤٨].

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ٢٢٧.

(٢) البحر المحيط: ٤/ ٣٦٦-٣٦٧.

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تحتمل أيضاً وجهين في المعنى:

أولهما: أنها العاطفة، عطفت ما بعدها على ما قبلها، والقائل واحد هو الشيطان.

والآخر: أنها استئنافية، وبالوقف على لفظ الجلالة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ يتم كلام الشيطان، ثم استئناف كلام جديد، والقائل هو الله تعالى.

جاء في فتح القدير: "﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يحتمل أن تكون من تمام كلام إبليس، ويحتمل أن تكون كلاماً مستأنفاً من جهة الله سبحانه"(١).

وغير بعيد أن يكون ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ من كلام الله تعالى ومن كلام الشيطان في وقت واحد جمعتهما الآية الكريمة بحرف واحد، فأغنت عن تكرار العبارة مرتين، فكانت من البيان والإيجاز بمكان.

قال تعالى: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٩].

الواو في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ﴾ تحتمل وجهين:

الأول: أن تكون عاطفة، والفعل بعدها مجزوم بالعطف.

والثاني: أن تكون للمعية، والفعل بعدها منصوب بإضمار (أن) بعد الواو في جواب الأمر.

يقول الألوسي: "﴿وَتَكُونُواْ﴾ بالجزم عطفاً على جواب الأمر. وبالنصب بعد الواو بإضمار (أن)، أي: يجتمع لكم خلو وجهه والكون من بَعْده"(٢).

(١) فتح القدير: ٢/ ٣١٦.

(٢) روح المعاني: ١٢/ ١٩١.

وكلا المعنيين سائغ محتمل، عبَّرت عنهما الآية الكريمة بحرف واحد.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٢٠/ ٧٢].

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ تحتمل معنيين:

أحدهما: أن تكون عاطفة، والمعنى: لَن نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَعلى الَّذِي فَطَرَنَا.

والآخر: أن تكون حرف جر وقسم، كأنهم قالوا: وَالله الَّذِي فَطَرَنَا لَن نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ.

جاء في فتح القدير: "﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ معطوف على ﴿مَا جَآءَنَا﴾، أي: لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات وعلى الذي فطرنا، أي: خلقنا. وقيل: هو قسم، أي: والله الذي فطرنا لن نؤثرك، أو لا نؤثرك. وهذان الوجهان في تفسير الآية ذكرهما الفراء والزجاج"(١).

والذي يبدو - والله أعلم - أن المعنيين مرادان في هذا النظم المحكم الكريم، فبدل أن يقول: وَالله الَّذِي فَطَرَنَا لَن نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَعلى الَّذِي فَطَرَنَا، اختزل المعنيين: القسم والعطف بحرف الواو الصالح لهما معاً في هذا السياق، فاتسع في المعنى وأوجز في العبارة.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٧٠].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ الواو تحتمل معنيين:

(١) فتح القدير: ٣/ ٣٧٦.

أحدهما: أن تكون حالية، والمعنى: بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَحالةُ أَكْثَرهمْ كراهية الحق.

والآخر: أن تكون استئنافية، ويكون المعنى قد تم عند ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، ثم يستأنف كلاماً جديداً فيقول: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾.

يقول ابن كثير: "﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾، يحتمل أن تكون هذه جملة حالية، أي: في حالة كراهة أكثرهم للحق، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة، والله أعلم"(١).

وغير بعيد أن يكون المعنيان مرادين أراد أن يُعبِّر عن حالتهم في أثناء المجيء، وأراد أن يخبر كذلك بأن أكثرهم للحق كارهون، ولكنه طوى العبارتين بحرف واحد يجمعهما، فأفصح وأوجز.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٥٩].

والواو في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ تحتمل أيضاً معنيين:

أحدهما: العطف، فيكون (سَلامٌ) داخلاً في الأمر بالقول، وعلى هذا فيكون قد أمر بشيئين؛ أحدهما: قول الحمد لله، والثاني: قول سلام على عباده الذين اصطفى، ويكون كلاهما معمولاً لفعل القول.

والآخر: الاستئناف، فيكون الأمر بالحمد فقط، والوقف على لفظ الجلالة، ثم السلام استؤنف إخباراً من جهة الله تعالى، كما أخبر بذلك في سورة الصافات فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٨٠-١٨٢]، فيكون

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٤٨٤.

obeikandl.com

الكلام قد تضمن جملتين: طلبية: وهي الأمر بقوله: قل الحمد لله، وخبرية: وهي سلامه تعالى على عباده، وعلى هذا فيكون من باب عطف الخبر على الطلب.

جاء في بدائع الفوائد: "قوله ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ هل السلام من الله تعالى، فيكون المأمور به الحمد، والوقف التام عليه، أو هو داخل في القول، والأمر بهما جميعاً؟ فالجواب عنه أن الكلام يحتمل الأمرين ويشهد لكل منهما ضرب من الترجيح"(١).

وقد ذكر ابن القيم أدلة للقولين(٢)، فمن مرجحات العطف أنه جاء على الأصل من حيث اتصال السلام بالحمد وعطفه عليه من غير فاصل، وأنه من عطف الخبر على الخبر، وهو الأصل كذلك. وأنه أتى بالضمير بلفظ الغيبة ولم يقل سلام على عبادي مما يرجح أن المسلم هو القائل الحمد لله.

وذكر من ضروب الترجيح في الاستئناف أنه مطابق لنظائره في القرآن من سلامه تعالى بنفسه على عباده الذين اصطفى، كقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٧٩]، ومنها أن عباده الذين اصطفى هم المرسلون، والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم وحمده لنفسه، فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٨٠-١٨٢]. ومنها كثرة عطف الخبر على الطلب في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١١٢].

ثم يقول ابن القيم: "وفصل الخطاب في ذلك أن يقال: الآية تتضمن

(١) بدائع الفوائد: ٢/ ٣٩٧.
(٢) نفسه: ٢/ ٣٩٧-٣٩٨.

الأمرين جميعاً وتنتظمهما انتظاماً واحداً"[(١)]. وهذا الذي ختم به ابن القيم هو غاية ما نرمي إليه من البحث في اتساع الدلالة في العبارة القرآنية لتنتظم معنيين أو أكثر بلفظ واحد.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٩].

وكذلك الواو في قوله تعالى ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ تحتمل معنيين:

أولهما: العطف، فيكون ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ معطوفاً على ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ﴾، والصنفان فريق واحد يشتركان في الأجر والنور، باعتبار أن الشهداء آمنوا بالله وصدقوا رسله.

والآخر: الاستئناف، فيكون الوقف على ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ﴾، ثم يستأنف الكلام، و﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مبتدأ خبره إما ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وإما ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾؛ فيكون الصنفان فريقين ومختلفين في الأجر، باعتبار الصدِيقين صفوة من المؤمنين.

يقول ابن الجوزي: "اختلفوا في نظم الآية على قولين؛ أحدهما: أن تمام الكلام عند قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ﴾، ثم ابتدأ فقال تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. هذا قول ابن عباس، ومسروق، والفراء في آخرين. والثاني: أنها على نظمها. والواو في ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ واو النسق"[(٢)].

ويقول البيضاوي: "أي أولئك عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء، أو هم المبالغون في الصدق؛ فإنهم آمنوا وصدقوا جميع أخبار الله ورسله

(١) نفسه: ٢/ ٣٩٨.
(٢) زاد المسير: ٨/ ١٧٠.

والقائمون بالشهادة لله ولهم، أو على الأمم يوم القيامة. وقيل: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مبتدأ وخبر"[١].

فتأمَّل اشتجار المعنيين في الآية الكريمة بالنظر إلى معنى الصدِّيقين والشهداء، وأثر (الواو) في الدلالة على معنيي العطف والاستئناف.

ثانياً - تعدد دلالة اللفظ:

تعدد الدلالة المعجمية للكلمة من المداخل اللطيفة التي ولجها الخطاب القرآني في نظمه الكريم للجمع بين دلالتين وربما أكثر في كلمة واحدة، نتلمس هذا الاتساع في دلالة اللفظ على معنيين من جذر واحد، وفي دلالته على معنيين من جذرين مختلفين، ثم في دلالة اللفظ على معنيين أحدهما حقيقي والآخر مجازي.

١- دلالة اللفظ على معنيين من جذر واحد:

غير مستغرب أن تتعدد دلالات الكلمة الواحدة في سياقات مختلفة، ولكن اللافت أن تتعدد دلالاتها في سياق واحد، أو يُراد منها عدة دلالات في وقت واحد، وتكون الكلمة في تلك المعاني من جذر لغوي واحد. وفيما يلي نستعرض نماذج لاتساع بعض الكلمات القرآنية لمعنيين أو أكثر، فيتسع الخطاب القرآني لاتساع بعض مفرداته.

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٨٨].

القلة في اللغة تدل على شيئين: أحدهما المعنى الشائع وهو خلاف الكثرة، والآخر النفي. فقد جاء في اللسان: "القِلَّةُ خِلاف الكثرة والقُلُّ

(١) أنوار التنزيل: ٥/ ٣٠١.

خلاف الكُثْر... وفي الحديث أنه كان يُقِلُّ اللَّغْوَ، أَي: لا يَلْغُو أَصلاً. قال ابن الأَثير: وهذا اللفظ يستعمَل في نفي أَصل الشيء كقوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾"[(١)].

والآية الكريمة تحتمل أنهم لم يكونوا آمنوا قليلاً ولا كثيراً، وتحتمل أنهم يصدقون بالشيء قليلاً ويكفرون بما سواه كالإيمان بالرسول ﷺ فيكونون كافرين، وذلك أن (قليل) و(قلّ) و(أَقلّ) قد تستعمل لمعنى النفي ولمعنى القلة، يقول الزمخشري: "﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فإيماناً قليلاً يؤمنون. و(ما) مزيدة، وهو إيمانهم ببعض الكتاب. ويجوز أن تكون القلة بمعنى العدم"[(٢)].

فالآية الكريمة جمعت بكلمة واحدة بين صنفين من الناس: بين من يؤمنون قليلاً، ومن لا يؤمنون أصلاً، وبدل أن يقال: فمنهم من لا يؤمن ومنهم من يؤمن قليلاً، جمع العبارتين بكلمة واحدة، سبكها بنظم معجز بقوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فأفاد وأوجز.

قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٩٦].

(وجد) في اللغة تحتمل التعدي إلى مفعول واحد، وتكون بمعنى (لقي)، وتحتمل كذلك التعدي إلى مفعولين، وتكون بمعنى (علم)، وقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ في الآية الكريمة يحتمل المعنيين؛ فقد تكون من (وجد) بعقله بمعنى (علم) المتعدية إلى مفعولين، والضمير مفعول أول، و﴿أَحْرَصَ﴾ مفعول ثان. وقد تكون من (وجد) بمعنى (لقي) فتتعدى إلى واحد.

(١) لسان العرب: (قلل).
(٢) الكشاف: ١/ ١٩٠.

يقول أبو حيان: "﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ الخطاب هنا للنبي ﷺ. و(وجد) هنا متعدّية إلى مفعولين: أحدهما الضمير، والثاني أحرص الناس. وإذا تعدّت إلى مفعولين كانت بمعنى (علم) المتعدّية إلى اثنين، كقوله تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٠٢]، وكونها هنا تعدّت إلى مفعولين هو قول من وقفنا على كلامه من المفسرين. ويحتمل أن يكون (وجد) هنا بمعنى (لقي وأصاب)، ويكون انتصاب أحرص على الحال"(١).

فجمع قوله تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ معنيي (علم) و(لقي)، فأكسب الآية اتساعاً في المعنى مع إيجاز في اللفظ.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢١].

يقول الأصفهاني: "تلاه: تبعه متابعة ليس بينهم ما ليس منها، وذلك يكون تارة بالجسم، وتارة بالاقتداء في الحكم. ومصدره: تُلُوّ وتِلْو، وتارة بالقراءة وتدبر المعنى، ومصدره: تلاوة ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ٩١/ ٢]، أراد به ههنا الاتباع على سبيل الاقتداء والمرتبة...، والتلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي وترغيب وترهيب"(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ يحتمل أن يكون من التلاوة، أي: القراءة والتدبر. ويحتمل أن يكون من التلوّ، بمعنى الاتباع والاقتداء.

جاء في فتح القدير: "والمراد بقوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ﴾ أنهم يعملون بما فيه؛ فيحللون حلاله ويحرمون حرامه، فيكون من تلاه يتلوه إذا اتبعه، ومنه

(١) البحر المحيط: ١/ ٤٨٠.
(٢) المفردات: (تلا).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ٩١/ ٢]، أي: اتبعها، كذا قيل. ويحتمل أن يكون من التلاوة، أي: يقرؤونه حق قراءته لا يحرفونه ولا يبدلونه"(١).

فالآية جمعت بكلمة واحدة معنيي القراءة والاتباع، أغنت عن جملتين؛ فبدل أن يقول: يقرؤونه حق قراءته ويتبعونه حق اتباعه، اختزن المعنيين بقوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ فأصابهما من أقرب سبيل.

وكذا الشأن في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٧]؛ إذ هو أمر من الله سبحانه أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى إليه، وأن يتبع حق اتباعه، جمع المعنيين بكلمة واحدة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٥].

المثابة في اللغة اسم مكان من (ثاب) إذا رجع، يقول الزبيدي: "والمَثَابَةُ: المَوْضِعُ الَّذِي يُثَابُ إِلَيْه أَي يُرْجَعُ إليه مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، ومنه قولُه تَعالَى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾. وإنَّمَا قِيلَ للْمَنْزِلِ مَثَابَةٌ؛ لأَنَّ أَهْلَهُ يَتَصَرَّفُونَ في أُمُورِهم ثُمَّ يَثُوبُونَ إِليهِ"(٢).

غير أن (المثابة) في الآية الكريمة تحتمل معنى آخر، وهو أن تكون مكاناً لتحصيل الثواب، فقد جاء في المفردات: "وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً﴾ قيل معناه: مكاناً يكتب فيه الثواب"(٣).

والاحتمالان ذكرهما أهل التفسير، فقد قال القرطبي في قوله تعالى:

---

(١) فتح القدير: ١/ ١٣٥-١٣٦.

(٢) تاج العروس: (ثوب).

(٣) المفردات: (ثوب).

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً﴾: "يراد به الموضع الذي يثاب إليه، أي يرجع إليه... ويحتمل أن يكون من الثواب، أي يثابون هناك"(١).

ويقول البيضاوي: "﴿ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً﴾ مرجعاً يثوب إليه أعيان الزوار أو أمثالهم، أو موضع ثواب يثابون بحجه واعتماره"(٢).

فالمثابة إذن كلمة جامعة للمعنيين، وبدل أن يقول: جعلنا البيت مكاناً يثوب إليه الناس مرة بعد مرة، ويُثابون فيه كل مرة، قال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً﴾ فقامت كلمة مقام جملتين، فأدت الغرض وأوجزت اللفظ.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٧].

الصدق في اللغة كما يقول الراغب: "مطابقة القول الضميرَ والمخبَرَ عنه معاً، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقاً تامّاً"(٣).

والصدق بعد ذلك صدقان: صدق في اللسان، وهو خلاف الكذب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤/ ٨٧]، وصدق في الأفعال والأحوال، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٣]، أي: حقَّقوا العهد بما أظهروه من أفعالهم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ١١٠.

(٢) أنوار التنزيل: ١/ ٣٩٨، وانظر: المحرر الوجيز: ١/ ٢٠٧، والجواهر الحسان: ١/ ١٠٦.

(٣) المفردات: (صدق).

وقد جاء الصدقان في قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٨]، أي: يسأل من صدق بلسانه عن صدق فعله؛ تنبيهاً أنه لا يكفي الاعتراف بالحق دون تحريه بالفعل[١].

و﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في الآية الكريمة: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ لا أقول يحتمل المعنيين، بل يجمع المعنيين معاً؛ إذ الآية تشير إلى الذين جمعوا تلك الأوصاف الجلية، من الإيمان، وإنفاق المال في سبيل الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، ثم قال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ ثم عقَّب بـ : ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ فمن جمع هذه الصفات وشهد الله له بالتقوى لا يكون صادقاً بلسانه فحسب، وإنما هو الصدق في لسانه وقلبه وجميع أحواله.

يقول أبو حيان في الآية: "والصدق هنا يحتمل أن يراد به الصدق في الأقوال؛ فيكون مقابل الكذب، والمعنى: أنهم يطابق أقوالهم ما انطوت عليه قلوبهم من الإيمان والخبر؛ فإذا أخبروا بشيء كان صدقاً لا يتطرق إليه الكذب... ويحتمل أن يراد بالصدق: الصدق في الأحوال، وهو مقابل الرياء، أي: أخلصوا أعمالهم لله تعالى دون رياء ولا سمعة، بل قصدوا وجه الله تعالى، وكانوا عند الظن بهم، كما تقول: صدقني الرمح، أي: وجدته عند اختباره كما أختار، وكما أظن به"[٢]. فهؤلاء صدق منهم القول والاعتقاد، وتحقَّق صدقهم بفعلهم.

فقد جمعت الآية الكريمة بين معنيي الصدق في اللسان وهو ضد الكذب، والصدق في الأحوال وهو ضد الرياء، فأدَّى قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ الغرضين جميعاً اتساعاً في المعنى وإيجازاً في اللفظ.

---

(١) نفسه: (صدق).

(٢) البحر المحيط: ٢/ ١٠.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٧].

التوبة في اللغة تعني الرجوع، وتعني كذلك التخفيف، جاء في تاج العروس: "أَصْلُ (تَابَ): عادَ إلى الله ورَجَعَ وأَنَابَ، وتَابَ الله عَلَيْهِ أَيْ: عَاد بالمَغْفِرَةِ، أَوْ وَفَّقهُ للتَّوْبَة، أَوْ رَجَعَ به مِن التَّشْديد إلى التَّخْفِيف، أَوْ رجَع عليه بفَضْلِه وَقَبُولِه، وكُلُّها معانٍ صَحِيحَةٌ وَارِدَةٌ"(١).

والآية التي بين يدينا تجمع بين هذين المعنيين (المغفرة والتخفيف) في قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾؛ إذ معناها: قَبِل توبتكم حين تبتم مما ارتكبتم من المحظور، وخفف عنكم بالرخصة والإباحة.

وبهذين المعنيين فسَّر العلماء قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ في هذه الآية وفي نظائرها من القرآن الكريم، يقول القرطبي: "وقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل معنيين؛ أحدهما: قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم. والآخر: التخفيف عنهم بالرخصة والإباحة، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ [المزمل: ٧٣/ ٢٠]، يعني خفف عنكم. وقوله عقيب القتل الخطأ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ [النساء: ٤/ ٩٢]، يعني تخفيفاً؛ لأن القاتل خطأ لم يفعل شيئاً تلزمه التوبة منه، وقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٧]، وإن لم يكن من النبي ﷺ ما يوجب التوبة منه"(٢).

---

(١) تاج العروس: (توب).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٣١٧، وانظر: البحر المحيط: ٢/ ٥٦، وفتح القدير: ١/ ١٨٦.

أضف إلى ذلك قوله تعالى عقب التوبة في الآية نفسها ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ أيضاً جمعت المعنيين، يقول القرطبي: "وقوله تعالى: ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ يحتمل العفو من الذنب، ويحتمل التوسعة والتسهيل، كقول النبي ﷺ: (أول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله) يعني تسهيله وتوسعته"(١).

فالآية جمعت بكلمة واحدة بين قبول التوبة عما فات والترخيص بما هو آت، وبكلمة ثانية بين العفو والتوسعة، فاستغنت الآية الكريمة بكلمتين عن أربع جمل، وفي ذلك من البلاغة والإيجاز ما فيه.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٤-٢٠٥].

التولِّي في اللغة(٢) يأتي بمعنى الولاية إذا عُدِّي بنفسه، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ٥١]، وإذا عُدِّي بـ (عن) لفظاً أو تقديراً اقتضى معنى الإعراض والانصراف كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٣]، والتولي قد يكون بالجسم وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٠].

جاء في اللسان: "(التَّوَلِّي) يكون بمعنى الإعْراضِ ويكون بمعنى الاتِّباع... و تَوَلَّيْتُ الأَمرَ تولِّياً إِذا ولِيته، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/ ١١]، أَي: وَلِيَ وِزْرَ الإِفْكِ وإِشاعَتَه"(٣).

وبالمعنيين (الولاية والإعراض) فُسِّر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى

(١) نفسه: ٢/ ٣١٧، وانظر: فتح القدير: ١/ ١٨٦.
(٢) المفردات: (ولي).
(٣) لسان العرب: (ولي).

ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٥]، يقول أبو حيان في الآية: "حقيقة التولي الانصراف بالبدن، ثم اتسع فيه حتى استعمل فيما يرجع عنه من قول وفعل، ومعناه هنا، قال ابن عباس: غضب؛ لأنه رجوع عن الرضى الذي كان قبله، وقال الحسن: انصرف عن القول الذي قاله، وقال مقاتل وابن قتيبة: انصرف ببدنه، وقال مجاهد: من الولاية، أي: صار والياً"(١).

وجاء في فتح القدير: "﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: أدبر وذهب عنك يا محمد... وقيل: إنه بمعنى الولاية، أي: إذا كان والياً فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد في الأرض"(٢).

والحقُّ أن ﴿تَوَلَّىٰ﴾ في هذه النظم الكريم أدَّت المعنيين معاً، فإن المتولِّي عن طاعة الله ورسوله إذا تولَّى أمر الناس حكم فيهم بحكم الجاهلين، وسلك بهم سبل الظالمين، وأهلك الحرث والنسل، ولم يرقب فيهم إلًّا ولا ذمة.

أضف إلى ذلك استخدام (السعي) في الآية الكريمة، وهي أيضاً عند المفسرين تحتمل معنيين: السعي بالقدمين وهو الأصل، والسعي بالعمل والتدبير، وكلاهما مراد في الآية.

يقول الشوكاني: "والسعي المذكور يحتمل أن يكون المراد به: السعي بالقدمين إلى ما هو فساد في الأرض، كقطع الطريق، وحرب المسلمين. ويحتمل أن يكون المراد به العمل في الفساد، وإن لم يكن فيه سعي بالقدمين، كالتدبير على المسلمين بما يضرّهم، وأعمال الحيل عليهم، وكل عمل يعمله الإنسان بجوارحه، أو حواسه يقال له (سعي)، وهذا هو الظاهر من هذه الآية"(٣).

---

(١) البحر المحيط: ٢/ ١٢٤.
(٢) فتح القدير: ١/ ٢٠٨.
(٣) نفسه: ١/ ٢٠٨.

وبهذا نجد أن كلمتين في الآية أغنتا عن أربع جمل، فتأمل أي اتساع هذا.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٣/ ٧].

يُطلَق (التأويل) في اللغة ويراد به أحد أمرين:

أولهما: ما يدل عليه الاشتقاق من معنى أول الشيء وأصله؛ إذ التأويل مشتق من (أول).

والثاني: بيان حقيقة الشيء وغايته التي ينتهي إليها. يقول ابن فارس: "الهمزة والواو واللام أصلان: ابتداء الأمر وانتهاؤه"(١).

والذي نذهب إليه أنه أصل واحد هو ردُّ الأمر، وردُّ الأمر تارة يكون إلى حقيقته وأصله، وأخرى يكون إلى مآله ومنتهاه. يشهد للأول قول الراغب: "التأويل من (الأول)، أي: الرجوع إلى الأصل. ومنه: الموئل للموضع الذي يرجع إليه"(٢). ويؤيد الثاني ما جاء في التاج: "التَّأوِيلُ: تفسيرُ ما يَؤُولُ إليه الشيء"(٣).

ومن هذا الباب تأويل الكلام، فمرة يكون بردِّه إلى عاقبته وما يؤُولُ إليه، وذلك قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِى تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٣]، يعني تفسير ما يَؤُول إليه في وقت بعثهم ونشورهم. ومرة يكون بردِّه إلى حقيقته وكنه معناه.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: (أول)، ابن فارس، أبو الحسين أحمد (٣٩٥هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط٣، ١٩٨١م.

(٢) المفردات: (أول).

(٣) تاج العروس: (أول).

ولهذين الاعتبارين اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، فكانوا فريقين:

فمن أخذ بالاعتبار الأول -وهو تفسير ما يؤول إليه الكلام- قال: إن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه من كتاب الله، ويكون ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ معطوفاً على لفظ الجلالة.

ومن أخذ بالاعتبار الثاني -وهو ردُّ الكلام إلى حقيقته وكنه معناه- قال لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله عزّ وجلّ، مع مراعاة الوقف على لفظ الجلالة، وتكون الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا﴾ للاستئناف يعقبها مبتدأ خبره ﴿يَقُولُونَ﴾.

يقول الشوكاني بعد أن ذكر اختلاف المفسرين وحجج كل فريق: "ومن أهل العلم من توسط بين المقامين؛ فقال: التأويل يطلق ويراد به في القرآن شيئان:

أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٠]، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٣]، أي: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور، وكنهها لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ، ويكون قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ مبتدأ، و﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ خبره.

وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر، وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء، كقوله: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ١٢/ ٣٦]، أي: بتفسيره - فالوقف على ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾؛ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا، فيكون ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ حالاً منهم"[(١)].

(١) فتح القدير: ١/ ٣١٧.

وخلاصة الأمر أن الآية الكريمة جاءت بـ (التأويل) وجمعت بهذه الكلمة الاحتمالين: ردّ المتشابه إلى حقيقته وكنه معناه الذي لا يعلمه إلا الله، وكذلك تفسير المتشابه وتلمس ما يؤول إليه من المعنى، وهذا مما يعلمه الراسخون في العلم، فأفادت الوجهين جميعاً بكلمة واحدة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠-١١].

الآية في اللغة تدلّ على العلامة، والجماعة. يقول الراغب الأصفهاني: "الآية: هي العلامة الظاهرة، وحقيقته لكل شيء ظاهر هو ملازم لشيء لا يظهر ظهوره، فمتى أدرك مدرك الظاهر منهما علم أنه أدرك الآخر الذي لم يدركه بذاته إذ كان حكمهما سواء، وذلك ظاهر في المحسوسات والمعقولات فمن علم ملازمة العلم للطريق المنهج ثم وجد العلم علم أنه وجد الطريق، وكذا إذا علم شيئاً مصنوعاً علم أنه لا بد له من صانع"(١).

وجاء في بدائع الفوائد: "لفظ الألف والياء المكررة راجع في جميع الكلام إلى معنى التعيين والتمييز للشيء من غيره؛ فمنه: أياة الشمس لضوئها؛ لأنه يبينها ويميزها من غيره. ومنه الآية العلامة. ومنه خرج القوم بآيهم، أي: بجماعتهم التي يتميزون بها عن غيرهم"(٢). ومنه آية القرآن؛ لأنَّها جماعةُ حروفٍ(٣).

(١) المفردات: (أي).
(٢) بدائع الفوائد: ١/ ١٦٥.
(٣) معجم مقاييس اللغة: (أيي).

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ (الآيات) في هذا الموضع ونظائرها في مواضع أخرى من القرآن الكريم[١] لا تخرج عن المعنى اللغوي للكلمة، فهي تحتمل أن تكون جماعة حروف من كلام الله تعالى تتمايز بخصائصها من كلام البشر، كما تحتمل أن تكون علامة يستدل بها على الخالق العظيم، كقوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ١١].

يقول أبو حيان: "والآيات يحتمل أن تكون المتلوة في كتب الله، ويحتمل أن تكون العلامات الدالة على توحيد الله وصدق أنبيائه"[٢].

وجاء في فتح القدير: "قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يحتمل أن يريد الآيات المتلوة، ويحتمل أن يريد الآيات المنصوبة للدلالة على الوحدانية ويصح إرادة الجميع"[٣].

وفي إرادة الجميع اتساع في دلالة (الآيات)؛ إذ تعبِّر عن معنيين: الآيات المتلوة والشواهد الكونية، بلفظ واحد.

قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ [النساء: ٤/ ٣٦].

يقول الراغب: "القرب والبعد يتقابلان... ويستعمل ذلك في المكان وفي الزمان وفي النسبة وفي الحظوة والرعاية والقدرة"[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ يحتمل عند المفسرين القرب في المكان والقرب في النسب.

---

(١) انظر مثلاً: المائدة ٥/ ١٠ و٨٦، الأنعام ٦/ ٣٩ و٤٩، الأعراف ٧/ ٣٦.
(٢) البحر المحيط: ٢/ ٤٠٦.
(٣) فتح القدير: ١/ ٣٢١.
(٤) المفردات: (قرب).

يقول الألوسي: "﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: الذي قرب جواره. ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ أي: البعيد، من الجنابة ضد القرابة، وهي على هذا مكانية. ويحتمل أن يراد بالجار ذي القربى مَن له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين، وبالجار الجنب الذي لا قرابة له، أو مشركاً"(١). وجاء في الكشاف: "﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ الذي قرب جواره... وقيل: الجار: القريب النسب"(٢).

والحق أن الآية جمعت وأوجزت فذكرت من له حق الجوار، ومن له حق الجوار والإسلام، ومن له حق الجوار والإسلام والرحم، كل ذلك بقوله: ﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾؛ فأغنت كلمة عن ثلاث جمل؛ إذ احتملت القربى المكانية والقربى في الدين والنسب.

وما قيل في هذه الآية يصدق في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ [البلد: ٩٠/ ١٢-١٥]، جاء في التفسير الكبير: "قال مقاتل: يعني يتيماً بينه وبينه قرابة، فقد اجتمع فيه حقان يتم وقرابة، فإطعامه أفضل. وقيل: يدخل فيه القرب بالجوار، كما يدخل فيه القرب بالنسب"(٣).

فقوله تعالى: ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ جمع القرب المكاني والقرب بالنسب بكلمة واحدة وكلاهما مراد، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٨٠].

---

(١) روح المعاني: ٥/ ٢٨، وانظر: أنوار التنزيل: ٢/ ١٨٧.
(٢) الكشاف: ١/ ٥٤١.
(٣) التفسير الكبير: ٣١/ ١٦٩.

الرُّؤْيَةُ: تعني النَّظَرُ بالعَيْنِ وبالقَلْبِ[١]، وبالمعنيين فسَّر المفسِّرون قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾.

يقول أبو حيان: "الظاهر عود الضمير في ﴿مِّنْهُمْ﴾ على بني إسرائيل، فقال مقاتل: ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ هو من كان بحضرة الرسول ﷺ يتولون الكفار وعبدة الأوثان، والمراد كعب بن الأشرف وأصحابه الذين استجلبوا المشركين على الرسول، وعلى هذا يكون ﴿تَرَىٰ﴾ بصرية، ويحتمل أن تكون من رؤية القلب؛ فيحتمل أن يراد أسلافهم، أي: ترى الآن إذ أخبرناك"[٢].

والذي نرجحه أن الآية جمعت بين معنيي الرؤية لتشمل الحاضرين وأسلافهم بالرؤية العينية والقلبية، فاتسع المعنى بأوجز لفظ.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٢].

﴿جَمِيعًا﴾ في هذه الآية وفي نظائرها من القرآن الكريم[٣] تحتمل دلالتي التوكيد والحال، وبالمعنيين جاءت كتب التفسير؛ فقد جاء في البحر المحيط ما يشير إلى دلالة التوكيد: "ويدل عليه التأكيد العام بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾"[٤]. وجاء في التفسير الكبير ذكر الحال، يقول الرازي: ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال، أي: نحشر الكل حال اجتماعهم"[٥].

وقد جمع ابن عادل الرأيين في اللباب، يقول: "﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ من

(١) القاموس المحيط: (رأى).
(٢) البحر المحيط: ٣/ ٥٤٩.
(٣) انظر مثلاً سورة يونس ١٠/ ٢٨.
(٤) البحر المحيط: ٤/ ٢٢٢.
(٥) التفسير الكبير: ١٧/ ٦٧.

مفعول ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾، ويجوز أن يكون توكيداً عند من أثْبَتَهُ من النحويين كـ (أجمعين)"[١].

وإذن فإنَّ ﴿جَمِيعًا﴾ تنطوي على معنيي التوكيد والحال، كأنه قال: وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ أجمعين مجتمعين، ويبيِّن لنا المسألة د. فاضل السامرائي بقوله: الفرق بين (جميع) إذا اتصلت بالضمير (جميعهم، جميعنا...) و(جميع) المفردة أن المتصلة به لا تكون إلا توكيداً بمعنى (كل)، والمفردة قد تكون بمعنى (كل) وقد تكون بمعنى (مجتمع). وقد تحتمل المعنيين معاً، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ فهذا يحتمل معنيين:

الأول: أن يكون بمعنى (كل) فيكون المعنى: ويوم نحشرهم كلهم.

الثاني: أن يكون بمعنى (مجتمع) فيكون المعنى: ويوم نحشرهم مجتمعين.

وقد يراد المعنيان معاً، أي يحشرهم كلهم مجتمعين، فبعدوله إلى المفردة كسب المعنيين معاً، ولو قال (ويوم نحشرهم جميعهم) لأفاد معنى واحداً فقط[٢]، فانظر كيف أوجز في المبنى وزاد في المعنى.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٤٢].

الربّ في اللغة يطلق ويقيد، فإن أطلق فلا يُراد به غير الله تعالى، وإن قيِّد بالإضافة فإنه يراد به الله تعالى والمولى والمالك، يقول الراغب[٣]: لا يقال الربّ مطلقاً إلا لله تعالى المتكفِّل بمصلحة الموجودات، نحو

---

(١) اللباب في علوم الكتاب: ٨/ ٧٢.

(٢) معاني النحو: ٤/ ١٢٤.

(٣) المفردات: (رب).

قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٥]. وبالإضافة يقال له ولغيره، يقال: رب الدار ورب الفرس لصاحبهما، وعلى ذلك قول الله تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ١٢/ ٤٢].

والرَّبُّ في قوله تعالى: ﴿ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾، تحتمل عند المفسرين معنيين:

الأول: أن يكون بمعنى الإله، ويكون الناسي يوسف عليه السلام، والمعنى، فأنسى الشيطانُ يوسفَ ذكر ربه؛ فاستعان بالمخلوق؛ فعوقب بالسجن بضع سنين مع العلم أن الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائزة في الشريعة، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهذا وإن كان جائزاً لعامة الخلق إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية، وألَّا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب.

والثاني: أن يكون الملك هو المقصود بـ ﴿رَبِّهِۦ﴾، ويكون الناسي هو الناجي، ساقي الملك، والمعنى: فأنسى الشيطانُ الناجيَ ذكر يوسف للملك.

يقول البيضاوي: "﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ فأنسى الشرابي أن يذكره لربه، فأضاف إليه المصدر لملابسته له، أو على تقدير ذكر أخبار ربه، أو أنسي يوسف ذكر الله حتى استعان بغيره، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: "رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ لما لبث في السجن سبعاً بعد الخمس"[(١)].

وجاء في البرهان: "وقوله ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾؛ فإن لفظة ربك رشحت لفظة ﴿رَبِّهِۦ﴾؛ لأن يكون تورية إذ يحتمل أنه أراد بها الإله سبحانه والملك، فلو اقتصر على قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ

(١) أنوار التنزيل: ٣/ ٢٩٠.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ لم تدل لفظة ربه إلا على الإله، فلما تقدمت لفظة ﴿رَبِّكَ﴾ احتمل المعنيين"[١].

فكلمة ﴿رَبِّهِۦ﴾ إذن تحتمل المعنيين، بل عبَّرت عنهما معاً، فحمَّلت الآية دلالتين مختلفتين بكلمة واحدة، ولو قال: فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ الله، لاقتصرت العبارة على المعنى الأول، فاتساع الكلمة لمعنى الإله والملك سد مسدّ جملتين في وقت واحد.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٨٥].

كلمة ﴿تَفۡتَؤُاْ﴾ في اللغة تأتي لمعانٍ عدة مبثوثة في المعاجم وكتب اللغة:

أولها: أنها بمعنى ما تبرح وما تزال، أي: ما تزال ذاكراً يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً...، يقول ابن منظور: "ما فَتِئْتُ وما فَتَأْتُ أَذكره، لُغَتان بالكسر والنصب، فَتَأَهُ فَتْأً وفُتُوءاً وما أَفْتَأْتُ الأَخيرة تَمِيميَّة، أَي: ما بَرِحْتُ وما زِلْتُ، لا يُسْتَعْمَل إِلَّا في النَّفْي ولا يُتَكَلَّم به إِلَّا مع الجَحْد، فإِن استُعْمل بغير ما ونحوها فهي مَنْوِيَّة على حسب ما تَجيءُ عليه أَخَواتُها"[٢].

الثاني: أنها بمعنى ينسى، أي: ما تنسى تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً، جاء في اللسان: "وفي نوادر الأعراب: فَتِئْتُ عن الأمر أَفْتَأُ إِذا نَسِيته وانْقَدَعْت"[٣].

والثالث: أنها بمعنى فتر وسكن، والمعنى: لا تفتر عن ذكر يوسف

(١) البرهان: ٣/ ٤٤٦.
(٢) لسان العرب: (فتأ).
(٣) نفسه: (فتأ).

ولا تسكن، جاء في الكشاف: " وعن مجاهد: لا تفتر من حبه، كأنه جعل الفتوء والفتور أخوين "(١).

والمعنى الرابع: أنها بمعنى أطفأ النار، كأنه قال: إن نار قلبك لا تنطفئ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً، فقد جاء في التاج: "قال الفرَّاء: فَتَأْتُه عن الأمرِ: سَكَّنْتُه، وفَتَأْتُ النَّارَ أطفأتُها "(٢).

فتأمّل كيف يدلّ هذا اللفظ على أربعة معانٍ متباينة اجتمعت في هذا السياق المُحكَم النظم لتعبِّر أبلغ تعبير عن حالة سيدنا يعقوب بعد فقده يوسف عليهما السلام، فكأنهم قالوا: إنك لا تنسى ذكر يوسف، ولا تسكّن نفسك، ولا تكف عن ذكره، وإن النار التي في جوانحك لا تنطفئ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ(٣)، فقامت كلمة واحدة مقام أربع جمل؛ فأي اتساع وإيجاز هذا؟!.

قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد: ١٣/ ١٧].

قوله تعالى: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ يحتمل في الآية الكريمة معنيين:

أحدهما: أن يكون من التقدير بمعنى القسمة، أي: بما قُسِم لها من الماء، جاء في التاج: "وقَدَرَ الرِّزْقَ يَقْدُرُه ويَقْدِرُه: قَسَمَهُ. قِيلَ: وبه سُمِّيَت لَيْلَةُ القَدْرِ؛ لأَنَّهَا تُقَسَّم فيها الأَرزاقُ "(٤).

والثاني: أن يكون بمقدار ما تحمله على قدر صغرها وكبرها.

يقول أبو السعود: "﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي: سالت ملتبسة بمقدارها الذي

(١) الكشاف: ٢/ ٤٧٠.
(٢) تاج العروس: (فتأ).
(٣) الجملة العربية والمعنى: ١٦٨.
(٤) تاج العروس: (قدر).

عينه الله تعالى واقتضته حكمته في نفع الناس. أو بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت محالها صغراً وكبراً، لا بكونها مالئة لها منطبقة عليها، بل بمجرد قلتها بصغرها المستلزم لقلة موارد الماء وكثرتها بكبرها المستدعي لكثرة الموارد؛ فإن مورد السيل الجاري في الوادي الصغير أقل من مورد السيل الجاري في الوادي الكبير"[(١)].

ويقول البيضاوي: "﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير ضار. أو بمقدارها في الصغر والكبر"[(٢)]. فجمعت الكلمة في نظم الآية الكريمة معنيي القسمة والحجم في آن معاً، والله أعلم بمراده.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٧].

﴿تَأَذَّنَ﴾ في اللغة تأتي لثلاثة معانٍ، هي القسم والقول والإعلام، يقول الزبيدي: "﴿تَأَذَّنَ﴾ ليفعلنّ، أي: أقسم وقال، وبه فُسِّر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾. وقال الزجاج: تأذن هنا بمعنى (أعلم). وقال الليث رحمه الله تعالى: تأذنت لأفعلنَّ كذا وكذا يراد به إيجاب الفعل"[(٣)].

وإلى (القسم) و(الإعلام) يشير ابن كثير في تفسير الآية، يقول: "وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾، أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٧]"[(٤)].

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٥/ ١٤.
(٢) أنوار التنزيل: ٣/ ٣٢٥.
(٣) تاج العروس: (أذن).
(٤) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٤٧٩.

وإلى معنى (القول) يشير الزمخشري في الآية، يقول: "والمعنى: وإذ تأذن ربكم فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾، أو أجرى ﴿تَأَذَّنَ﴾ مجرى (قال)؛ لأنه ضرب من القول"(١).

ففي الآية ثلاثة معان ذكرها المفسرون متفرقة، والذي نذهب إليه أنها تدل على ثلاثة المعاني مجتمعةً، الإعلام والقسم والقول؛ فكأنه قال: وَإِذْ أقسم ربكم مُعلِماً قائلاً لَئِن شَكَرْتُمْ؛ فأدَّى اللفظ الواحد مُؤدَّى ثلاثة ألفاظ في وقت واحد.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٢].

السلاطة في اللغة: التمكن؛ من القهر والغلبة، ويكون بقوة القتال كما يكون بقوة الإقناع؛ ولذلك يطلق السلطان على الملك والحجة، جاء في مقاييس اللغة: "السين واللام والطاء أصلٌ واحدٌ، وهو القوّة والقهر. من ذلك السَّلاطة، من التسلط وهو القَهْر، ولذلك سمِّي السُّلْطان سلطاناً. والسلطان: الحُجَّة"(٢).

ويقول ابن منظور: "في السلطان قولان أَحدهما: أَن يكون سمي سلطاناً لتَسْلِيطِه، والآخر: أَن يكون سمي سلطاناً لأَنه حجة من حُجَج الله. قال الفراء: السلطان عند العرب الحجة، ويذكر ويؤنث، فمن ذكر السلطان ذهب به إِلى معنى الرجل، ومن أَنثه ذهب به إِلى معنى الحجة"(٣).

---

(١) الكشاف: ٢/ ٥٠٩.
(٢) معجم مقاييس اللغة: (سلط).
(٣) لسان العرب: (سلط).

وقول الشيطان في الآية ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ يحتمل سلطان القهر وسلطان الحجة، يقول أبو حيان: "﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ الظاهر أنه استثناء منقطع؛ لأنّ دعاءه إياهم إلى الضلالة ووسوسته ليس من جنس السلطان، وهو الحجة البينة. قيل: ويحتمل أن يريد بالسلطان الغلبة والتسليط والقدرة أي: ما اضطررتكم ولا خوفتكم بقوة مني، بل عرضت عليكم شيئاً فأتى رأيكم عليه"[١].

ومما يحتمل المعنيين أيضاً قول مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٦٩/٢٩]؛ إذ يحتمل السلطانين، سلطان القدرة وسلطان الحجة، يقول أبو السعود: "﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ أي مُلكِي وتسلُّطِي على الناسِ أو حُجتي التي كنتُ أحتجُّ بها في الدُّنيا أو تسلطي على القُوَى والآلاتِ فعجزتُ عن استعمالِهَا في العِبَاداتِ"[٢].

قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥/ ١٤-١٥].

تباينت أقوال اللغويين والمفسِّرين في قوله تعالى: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾، وفي أصل الدلالة للكلمة؛ فالراغب يرى أن: "(السكر) حالة تعرض بين المرء وعقله"[٣]، وابن فارس يقول: "السين والكاف والراء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على حَيرة"[٤].

وبين القولين أقوال للغويين في الآية خاصة، ذكرها الزبيدي في تاج العروس[٥]، تتلخص في أربعة معانٍ:

---

(١) البحر المحيط: ٥/٤٠٨.
(٢) إرشاد العقل السليم: ٩/٢٦، وانظر المفردات: (سلط).
(٣) المفردات: (سكر).
(٤) معجم مقاييس اللغة: (سكر).
(٥) تاج العروس: (سكر).

أولها : حُبِستْ ومُنِعتْ من النَّظَر. قاله الفراءُ.

ثانيها : غُطِّيتْ وغُشِّيتْ. مأْخُوذٌ من سُكْرِ الشَّرابِ كأنّ العينَ لَحقها ما يلْحقُ شاربَ المُسْكِرِ. قاله أبو عمْرو بن العلاءِ.

ثالثها : قال مُجاهد : سُكِّرَتْ أبصارُنَا ، أي : سُدَّتْ. قال أبو عُبيدٍ : يذْهبُ مُجاهدٌ إلى أنَّ الأبْصارَ غَشيَها ما منعها من النّظر كما يمنَع السِّكْرُ الماءَ من الجري.

رابعها : قال الزَّجاج : تَحيّرَتْ وسَكَنَتْ عن النَّظرِ.

وبأقوال اللغويين قال المفسرون ، فقد جاء في التفسير الكبير : "قال الواحدي : سكرت غشيت وسُدَّت بالسحر. هذا قول أهل اللغة ، قالوا : وأصله من السكر ، وهو سدُّ الشق لئلا ينفجر الماء ، فكأن هذه الأبصار منعت من النظر كما يمنع السِّكر الماء من الجري ، والتشديد يوجب زيادة وتكثيراً. وقال أبو عمرو بن العلاء : هو مأخوذ من سكر الشراب يعني أن الأبصار حارت ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع بالرجل السكران من تغيُّر العقل ، فإذا كان هذا معنى التخفيف فـ ﴿سُكِّرَتْ﴾ بالتشديد يراد به وقوع هذا الأمر مرة بعد أخرى. وقال أبو عبيدة : ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا﴾ أي : غشيت أبصارنا فوجب سكونها وبطلانها ، وعلى هذا القول أصله من السكون. يقال : سكرت الريح سكراً إذا سكنت ، وسكر الحر يسكر ، وليلة ساكرة لا ريح فيها ، وقال أوس :

جذلت على ليلة ساهرة فليست بطلق ولا ساكره

ويقال : سكرت عينه سكراً إذا تحيَّرت وسكنت عن النظر ، وعلى هذا معنى ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا﴾ ، أي : سكنت عن النظر ، وهذا القول اختيار الزجاج "(١).

(١) التفسير الكبير : ١٩/ ١٣٣.

والحاصل أن الكلمة تنطوي على عدة معان وإن تقاربت، فأغنت الكلمة باتساعها عن كلمات تفصيلية تدور في فلكها، واتسع العلماء في تفسيرها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٤٥-٤٦].

السلام في الآية الكريمة، وفي قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٥٠/ ٣٤]، يحتمل أن يكون اسماً لتحية المسلمين، أي: ادخلوها بتحية من الله وملائكته، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٣-٢٤]، وتحتمل أن تكون بمعنى السلامة، أي: ادخلوها بسلامة من كل داء وآفة، يقول الراغب: "والسلامة التعرِّي من الآفات الظاهرة والباطنة"(١).

وبالقولين قال المفسرون، إذ جاء في زاد المسير: "﴿بِسَلَٰمٍ﴾ وذلك أنهم سَلِموا من عذاب الله، وسلموا فيها من الغُموم والتغيُّر والزَّوال، وسلَّم الله وملائكتُه عليهم"(٢).

ويقول الزمخشري: "﴿بِسَلَٰمٍ﴾ سالمين أو مسلماً عليكم، تسلم عليكم الملائكة"(٣).

ولعل الأمثل ما ذكره ابن الجوزي من الجمع بين التحية والسلامة، إذ جمعت الكلمة المعنيين معاً، فقلَّ اللفظ وكثر المعنى، وذلك من البلاغة بمكان.

---

(١) المفردات: (سلم).
(٢) زاد المسير: ٨/ ٢٠.
(٣) الكشاف: ٢/ ٥٤٢.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف: ١٨/ ١٩].

و(النظر) في اللغة قد يكون بالبصر، وقد يكون بالبصيرة، وهو في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ يجمعهما، إذ إنهم طلبوا منه إعمال العقل والعين في اختيار نوع الطعام ومكانه وبائعه؛ فقد جاء في تأويل ﴿أَزْكَىٰ﴾ أنه أحل ذبيحة وأطهر لأن عامة بلدتهم كانوا كفاراً يذبحون للطواغيت، وقيل: ألذ وأطيب[١]، وكل ذلك يحتاج إلى إعمال البصيرة والبصر معاً.

يقول الألوسي: "و(النظر) يحتمل أن يكون من نظر القلب، وأن يكون من نظر العين. و(أَيُّ): استفهام مبتدأ. و﴿أَزْكَىٰ﴾: خبره. والجملة معلق عنها الفعل للاستفهام"[٢].

وبدل أن يقول فلينظر أيّها ألذ للعين وأطيب للنفس، وليتبصَّر أيّها أحلّ وأطهر، جمع المعنيين بكلمة اتسعت لنظر العين ونظر القلب معاً بأوجز عبارة.

قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٥٢].

في استخدام كلمة ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ في الآية الكريمة ونظمها تفنن عجيب يأخذ بالألباب، ويُحمِّل الآية أوجهاً عديدة من المعاني بأقل الألفاظ، وتفصيل ذلك في مسألتين: هما تأخير الصفة عن المضاف والمضاف إليه، واغتنام الطاقة الدلالية للجذر اللغوي (ي م ن) والصيغة الصرفية (أفعل) في التعبير عن اليُمْن واليمين معاً.

---

(١) البحر المحيط: ٦/ ١٠٧.

(٢) روح المعاني: ١٥/ ٢٣١.

فكلمة ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ سبقها مضاف مجرور ﴿جَانِبِ﴾ ومضاف إليه ﴿ٱلطُّورِ﴾ وهو مجرور كذلك، وهي بحسب التأويل النحوي واللغوي تحتمل ثلاثة معانٍ:

الأول: أن تكون صفة للمضاف ﴿جَانِبِ﴾، ويؤيده قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ [طه: ٢٠/ ٨٠]. بنصب الأيمن نعتاً لجانب الطور، والجبل نفسه لا يمنة له ولا يسرة، يقول ابن عاشور: "وجانب الطور: سفحه. ووصفه بالأيمن باعتبار جهة الشخص المستقبل مشرقَ الشمس، وإلا فليس للجبل يمين وشمال معيَّنان، وإنما تعرَّف بمعرفة أصل الجهات، وهو مطلع الشمس فهو الجانب القبلي باصطلاحنا"(١).

الثاني: أن تكون صفة للمضاف ﴿جَانِبِ﴾، ولكن بمراعاة اشتقاق اللفظ من اليمن والبركة، فالجانب الأيمن بمعنى المبارك الأسعد، يقول أبو حيان: "وإن كان من (اليمن) احتمل أن يكون صفة للجانب وهو الراجح ليوافق ذلك في الآيتين"(٢)، في قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [مريم: ١٩/ ٥٢]، وقوله: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ [طه: ٢٠/ ٨٠].

والثالث: أن يكون (الأيمن) صفة للمضاف إليه ﴿ٱلطُّورِ﴾، وليس المقصود أن ثمة جبلاً في جهة اليمين وجبلاً في جهة اليسار، وإنما يراعى الاشتقاق من اليمن والبركة، فالطور الأيمن بمعنى الأسعد، يقول أبو حيان: "واحتمل أن يكون صفة للطور إذ معناه الأسعد المبارك"(٣).

فباستخدام كلمة (الأيمن) وتأخيرها جمعت الآية أوجهاً من المعاني المحتملة، بل المرادة بأخصر لفظ وأوجز عبارة، فبدل أن يقول: من

(١) التحرير والتنوير: ١٦/ ١٥٨.
(٢) البحر المحيط: ٦/ ١٨٨.
(٣) نفسه: ٦/ ١٨٨.

الجانب الأيمن للطور، أو من الجانب المبارك للطور، أو من الجانب الأيمن المبارك من الطور، أو يقول من الطور المبارك من جانبه (على البدلية)، فبدلاً من ذلك كله قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ فاحتوى تلك المعاني جميعها بلفظ قليل ونظم فريد.

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٧].

﴿نَّقْدِرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون ﴿نَّقْدِرَ﴾ بمعنى (نُقَدِّر)، أي: فظن أن لن نُقَدِّر عليه العقوبة.

والآخر: أن يكون بمعنى (نضيِّق)، أي: فظن أن لن نُضَيِّقَ عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٦٥/ ٧].

جاء في التاج: "يُقَال: قَدَرَ عليه الشَّيْءَ يَقْدِرُه ويَقْدُرُه قَدْراً وقَدَراً وقَدَّرَه: ضَيَّقَه... وقولُه تَعَالَى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أَي: لَنْ نُضَيِّق عليه. قاله الفَرّاءُ وأَبو الهَيْثَم. وقال الزَّجّاج: أَي لَنْ نُقدِّر عليه ما قَدَّرنا من كوْنِه في بَطْنِ الحُوتِ. قال: ونَقْدِرُ بمعنَى نُقدِّر. قال: وقد جَاءَ هذا في التَّفْسِير. قال الأَزْهريّ: وهذا الذي قالَهُ صحيحٌ، والمعنى ما قَدّرَهُ الله عَلَيْه من التَّضْيِيقِ في بَطْنِ الحُوت، وكُلُّ ذلك سائغٌ في اللُّغَة. والله أَعلم بما أَراد"[(١)].

ولعل من الصالح أن نجمع بين المعنيين، فنقول: فَظَنَّ أَن لَن نُقدِّر عَلَيْهِ من عقوبة التضييق ما قدَّرنا، فتكون الآية عبَّرت عن المعنيين معاً من أقرب سبيل وبأوجز عبارة.

(١) تاج العروس: (قدر).

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٢٩].

العتق في العربية يدل على معنيين: الكرم والقدم، يقول ابن فارس: "العين والتاء والقاف أصل صحيح يجمع معنى الكرم خِلْقةً وخُلُقاً، ومعنى القِدَم"(١).

والعتيق في وصف البيت الحرام في الآية الكريمة لا يخرج عن هذين المعنيين، بل يجمعهما معاً؛ فهو مع كرامته وحرمته أقدم بيت على وجه المعمورة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٦].

وقد اختلف المتأوِّلون في وجه صفة البيت بالعتيق نجملها بخمسة أوجه(٢):

أحدها: العتيق القديم؛ لأنه أول بيت وضع للناس. عن الحسن.

وثانيها: لأنه أعتق من الجبابرة فكم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله تعالى، وهو قول ابن عباس وقول ابن الزبير.

وثالثها: لم يملك قط. عن ابن عيينة.

ورابعها: أعتق من الغرق. عن مجاهد.

وخامسها: بيت كريم من قولهم عتاق الطير والخيل.

والجمع بين هذه الأوجه غير عسير، فبيت الكريم كريم، ولم يكن الله ليجعل لأحد على بيته من سبيل، سواء بالتملك أو التسلُّط، وهو أول بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، فالوصف بالعتيق يكسب الآية ثلاثة معانٍ بلفظ واحد.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: (عتق).

(٢) التفسير الكبير: ٢٣/ ٢٧.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٩].

الحسيب في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ يحتمل معنيين:

أولهما: فَعِيلٌ بمَعْنَى مُفْعِلٍ من الحساب، أي: وَكَفَى بِالله محاسباً.

والثاني: بمعنى الكافي، تقول: أَحْسَبَهُ الشَّيْءُ إذا كَفَاهُ وأَحْسَبَنِي ما أَعْطَانِي أَي كَفَانِي.

فالكلمة تحتمل معنى المحاسب ومعنى الكافي، وبهما قال أهل العلم في الآية: "قال أَبو إِسحاق في قولهِ عزّ وجلّ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾: يكون بمعنى مُحاسِباً ويكون بمعنى كافِياً"(١).

وجاء في التاج: "﴿حَسِيبًا﴾ أَيْ مُحَاسِباً، أَو يَكُونُ بمَعْنَى كَافِياً، أَي: يُعْطِي كُلَّ شَيْءٍ من العِلْمِ والحِفْظِ والجَزَاءِ بمِقْدَارِ ما يحْسُبُه أَيْ يَكْفِيهِ، تَقُولُ: حَسْبُكَ هذا، أَي اكتَفِ بهَذَا"(٢).

ولا يصحُّ الاكتفاء بأحد المعنيين في الآية؛ إذ لا يُعقل أن يقال: إن الله محاسِب أو كاف على التخيير، بل الله عزَّ وجلَّ كاف ومحاسِب معاً، والكلمة جمعت المعنيين فأدَّت الغرض وأوجزت.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٤].

الفعل (تَبَيَّنَ) في قوله تعالى: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ يحتمل معنيين:

(١) لسان العرب: (حسب).
(٢) تاج العروس: (حسب).

أحدهما: أن يكون لازماً بمعنى بان وظهر، أي: ظهرت حقيقة الجن وبانت بأنهم لا يعلمون الغيب.

والآخر: أن يكون متعدّياً بمعنى (علم)، أي: علمت الجن موته.

يقول الثعالبي: "قَرأ الجمهور: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ بإِسْنَادِ الفعلِ إِلَيْها، أي: بَانَ أَمْرُهَا، كَأَنَّهُ قال: افْتُضِحَتِ الجِنّ، أي: للإِنْسِ، هذا تَأْوِيلٌ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَولُه: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ بِمَعْنَى: عَلِمَتِ الجِنُّ وَتَحَقَّقَتْ، وَيُرِيدُ بِالجِنِّ جُمْهُورَهُمْ؛ والخَدَمَةَ مِنْهُمْ، ويُرِيدُ بالضَّمِيرِ فِي ﴿كَانُوا۟﴾ رُؤَسَاءَهُمْ وَكِبَارَهُمْ لأَنَّهُمْ هُمُ الذينَ يَدَّعُونَ عِلْمَ الغَيْبِ لأَتْبَاعِهِم من الجِنِّ والإنسِ"(١).

والمعنيان مرادان كذلك، فقد جمع الفعل ﴿تَبَيَّنَتِ﴾ افتضاح أمر الجن، سواء الجن عموماً للإنس، وأمر رؤسائهم لجمهورهم، فأصابت الكلمة الغرضين معاً من أقرب سبيل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٤١/٨].

قوله تعالى: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ في الآية الكريمة، وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم(٢)، يحتمل اسم المفعول ﴿مَمْنُونٍ﴾ ثلاثة معان:

الأول: أن يكون من المنّ بمعنى القطع، يقول الخليل: "والمنّ قَطْع الخَيْر، وقوله جل وعز ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع"(٣)، ويقول الرازي: "﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، من قولك: مننت

---

(١) الجواهر الحسان: ٣/ ٢٤٣.

(٢) في سورة القلم ٦٨/ ٣، والانشقاق ٨٥/ ٢٥، والتين ٩٥/ ٦.

(٣) كتاب العين: (من)، الفراهيدي، الخليل بن أحمد (١٧٥هـ)، تح: د. مهدي المخزومي / د. إبراهيم السامرائي. دار الرشيد، العراق، ١٩٨٠م.

الحبل، أي: قطعته، ومنه قولهم: قد منَّه السفر، أي: قطعه"[١].

والثاني: أن يكون بمعنى النقص، جاء في مختار الصحاح: "المَنُّ: القطع، وقيل: النقص، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦/٩٥]"[٢]. ويقول الألوسي: " فيه إشارة إلى أن أجر المؤمن غير العامل مَمْنُون، أي: منقوص بالنسبة إلى أجر المؤمن العامل"[٣].

أما الثالث فهو المن بمعنى تكدير المنعَم عليه بذكر النعمة واستعظامها، والتقدير: غَيْرُ مَمْنُونٍ به عليهم، والمعنى: أن أجرهم سرور لهم لا تشوبه شائبة كدر لأن المنّ ينغّص الإنعام، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٤]، يقول ابن عاشور: "الممنون: الذي يُمنّ على المأجُور به، أي: لهم أجر لا يشوبه كدر، ولا كدر أن يمنّ على الذي يعطاه بقول: هذا أجرك، أو هذا عطاؤك، فالممنون: مَفْعول مَنّ عليه، ويجوز أن يكون مفعولاً من مَنَّ الحبلَ، إذا قطعه فهو منين، أي: مقطوع أو موشك على التقطع"[٤].

والخلاصة أن الآية الكريمة جمعت ثلاثة معان محتملة بل مرادة في كلمة واحدة، فثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات غير منقوص ولا منقطع وغير مكدَّر بالمنّ عليهم، فقال: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ليجمع هذه المعاني كلها، ولم يقل غير مقطوع ولا نحو ذلك فيفيد معنى دون آخر.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٤٧].

جاء في مختارالصحاح: "الوُسْعُ والسَّعَة بالفتح الجدة والطاقة ﴿لِيُنفِقْ

(١) التفسير الكبير: ٢٧/ ٧٨.
(٢) مختار الصحاح: (منن).
(٣) روح المعاني: ٢٥/ ٨.
(٤) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٣٧٩.

ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: ٦٥/٧]، أي: على قدر سعته، وأَوْسَعَ الرجل صار ذا سعة وغنى"[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ يحتمل المعنيين: الأول: أن يكون بمعنى الغنى، أي: وَإِنَّا لأغنياء. الثاني: أن تكون بمعنى القدرة والطاقة، أي: وَإِنَّا لقادرون مطيقون.

يقول ابن عادل: "معناه: لَقَادِرُونَ، كقولك: ما في وُسْعِي كذا، أي: ما في طاقتي وقُوَّتِي، كقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦]. قاله ابن عَبَّاسٍ. وعنه أيضاً: لموسعون الرزق على خَلْقِنَا. وقيل: ذُو سَعَةٍ. وقال الضحاك: أغنياء، دليله قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٦]"[(٢)].

وقد جمع القرطبي أقوال المفسرين في الآية فقال: "﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ قال ابن عباس: لقادرون. وقيل: أي وإنا لذو سعة، وبخلقها وخلق غيرها لا يضيق علينا شيء نريده. وقيل: أي وإنا لموسعون الرزق على خلقنا. عن ابن عباس أيضاً. الحسن: وإنا لمطيقون. وعنه أيضاً: وإنا لموسعون الرزق بالمطر. وقال الضحاك: أغنيناكم، دليله: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾. وقال القتبي: ذو سعة على خلقنا. والمعنى متقارب. وقيل: جعلنا بينهما وبين الأرض سعة. الجوهري: وأوسع الرجل، أي: صار ذا سعة وغنى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: أغنياء قادرون. فشمل جميع الأقوال"[(٣)].

والقول ما قاله القرطبي من الجمع بين الغنى والقدرة؛ فالله جلَّ وعلا يُخبر عن نفسه بصفتين بلفظ واحد، والصفتان مناسبتان للسياق[(٤)]:

(١) مختار الصحاح: (وسع).
(٢) اللباب في علوم الكتاب: ١٨/ ١٠٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ٥٢.
(٤) انظر: روح المعاني: ٢٧/ ١٢ بتصرف.

أما صفة القدرة فلأن الجملة جاءت بعد قوله ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ فجاء ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ تذييلاً لإثبات سعة قدرته على كل شيء فضلاً عن السماء، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٥٠/ ٣٨].

وأما صفة الغنى فلأن الجملة جاء قبلها قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٢٢]، فناسب أن يتمم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٤٧] مبالغة في المنّ والعطاء.

أضف إلى معنيي الغنى والقدرة ما يفيده حذف المفعول من احتمالات دلالية أخرى، كتوسيع السماء وتوسيع الرزق وغير ذلك، يقول البيضاوي: "﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون، من الوسع بمعنى الطاقة، والموسع: القادر على الإنفاق. أو ﴿لَمُوسِعُونَ﴾ السماء، أو ما بينها وبين الأرض، أو الرزق"[(١)]، فتأمل المعاني المحتملة التي يحتاج بسطها إلى جُمَل أوجزها النظم القرآني بكلمة واحدة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ٤-٦].

قوله تعالى: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ يحتمل من حيث الاشتقاق معنيين:

أحدهما: أن يكون من المعرفة التي هي ضد الجَهْل، والمعنى: دلَّهم على منازلهم في الجنة وحدَّدها لهم.

والآخر: أن يكون من العَرْفِ، وهو الطيب، أي: طيبهَا لهم.

وبالمعنيين جاءت كتب اللغة والتفسير، يقول ابن الجوزي: "وفي قوله: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ قولان: أحدهما: عرَّفهم منازلهم فيها فلا يستدِلُّون عليها ولا يُخطِئونها، هذا قول الجمهور، منهم مجاهد وقتادة، واختاره

(١) أنوار التنزيل: ٥/ ٢٤١.

الفراء، وأبو عبيدة. والثاني: طيَّبها لهم، رواه عطاء عن ابن عباس. قال ابن قتيبة: وهو قول أصحاب اللغة يقال: طعامٌ معرَّف، أي: مطيَّب."(١).

ويقول ابن عاشور: "ومعنى ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أنه وصفها لهم في الدنيا فهم يعرفونها بصفاتها، فالجملة حال من الجنة، أو المعنى هداهم إلى طريقها في الآخرة فلا يترددون في أنهم داخلوها، وذلك من تعجيل الفرح بها. وقيل ﴿عَرَّفَهَا﴾ جعل فيها عرْفاً، أي: ريحاً طيباً، والتطييب من تمام حسن الضيافة"(٢).

ونرجح الجمع بين المعنيين، فهم يعرفون مقاعدهم من الجنة، وقد طيَّبها الله لهم وأعدَّها لاستقبالهم، فاختصر النظم القرآني العبارتين بكلمة واحدة تجمعهما، إيجازاً في اللفظ واتساعاً في المعنى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤/ ٥٤].

النهر في اللغة يدل على ثلاثة معانٍ، هي مجرى الماء، والسعة، والضياء، وقد ردَّها ابن فارس إلى أصل واحد هو الانفتاح، يقول: "النون والهاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تفتُّح شيءٍ أو فتحِه. وأنْهَرْتُ الدَّم: فتحتُه وأرسلْته. وسمِّي النّهرُ لأنَّه يَنْهَر الأرض، أي: يشقُّها. والمَنْهَرة: فضاءٌ يكون بين بُيوت القَوم يُلقُون فيها كُناسَتَهم... ومنه النَّهار: انفِتاح الظُّلمة عن الضِّياء ما بين طُلوعِ الفجر إلى غروب الشَّمس. ويقولون: إنَّ النّهار يجمع على نُهُر."(٣).

وجاء في المفردات: "النهر مجرى الماء الفائض وجمعه أنهار...

---

(١) زاد المسير: ٧/ ٣٩٨.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٧١.

(٣) معجم مقاييس اللغة: (نهر).

والنهر السعة تشبيهاً بنهر الماء،... والنهار الوقت الذي ينتشر فيه الضوء"[١].

وهذه المعاني الثلاثة قيلت في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾، بتخصيص أحد هذه المعاني، أو بترجيح بعضها على الآخر.

فمن العلماء من نظر إلى الفاصلة القرآنية في سياق السورة، في تفسير الكلمة فقال هي الأنهار جاءت مفردة لمراعاة الفاصلة، جاء في البرهان: "واعلم أن إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطرد متأكد جداً، ومؤثر في اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه من النفس تأثيراً عظيماً؛ ولذلك خرج عن نظم الكلام لأجلها في مواضع:... (الخامس): إفراد ما أصله أن يجمع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ قال الفراء: الأصل الأنهار، وإنما وحّد لأنه رأس آية، فقابل بالتوحيد رؤوس الآي"[٢].

وجاء في زاد المسير: "قال الزجّاج: المعنى: في جنّات وأنهار، والاسم الواحد يَدلُّ على الجميع، فيجتزأ به من الجميع... وحكى ابن قتيبة عن الفراء أنه وُحِّد لأنه رأسُ آية، فقابل بالتوحيد رؤوس الآي"[٣].

ومنهم من رأى في الكلمة معنى الضياء من النهار، جاء في التاج: "والنَّهَرُ مُحَرَّكَةً: السَّعَةُ والضِّياءُ وبه فسَّر بعضهم قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾، أَي لأَنَّ الجَنَّة ليس فيها ليلٌ، إِنَّما هو نورٌ يتلألأُ. وقال ثعلبٌ: نَهَرٌ: جمع نُهُر، وهو جَمع الجَمْع للنَّهار"[٤].

---

(١) المفردات: (نهر).
(٢) البرهان: ١/ ٦٠-٦٣.
(٣) زاد المسير: ٨/ ١٠٣.
(٤) تاج العروس: (نهر).

ومنهم من خصص معنى السعة، قال الضحاك: "ليس المراد هنا نهر الماء، وإنما المراد سَعَةُ الأرزاق؛ لأن المادة تدلُّ على ذلك، كقول قَيْس بن الخَطِيم:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا   يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونها مَا وَرَاءَهَا

أي وسعته. ومنه: أَنْهَرْتُ الجُرْحَ"(١).

ومنهم من أجاز ثلاثة المعاني، يقول البيضاوي: "﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ أنهار، واكتفى باسم الجنس، أو سعة، أو ضياء من النهار"(٢).

وجاء في اللسان: "وأما قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ فقد يجوز أن يعني به السعة، والضياء، وأن يعني به النهر الذي هو مجرى الماء على وضع الواحد موضع الجميع... وقيل: في قوله: ﴿جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي في ضياء وسعة؛ لأن الجنة ليس فيها ليل إنما هو نور يتلألأ، وقيل: نهر أي أنهار. وقال أحمد بن يحيى: نَهَر جمع نُهُر، وهو جمع الجمع للنَّهار. ويقال: هو واحد نَهْر كما يقال: شَعَر وشَعْر، ونصب الهاء أفصح"(٣).

وهذه المعاني كلها مرادة مقصودة في دلالة (النَّهَر) في الآية الكريمة، ولكل معنى ما يؤيده من القرآن أو السنة؛ فالجنان التي أعدها للمتقين:

أولاً: ذات أنهار، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٥].

---

(١) اللباب في علوم الكتاب: ١٨/ ٢٨٦.
(٢) أنوار التنزيل: ٥/ ٢٧١.
(٣) لسان العرب: (نهر).

وثانياً: ذات سعة في المكان، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٣]، وذات سعة في الرزق، قال تعالى في وصف جنة المتقين: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق: ٥٠/ ٣٥].

وثالثاً: ذات نور، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أَلا مُشَمِّرٌ لِلْجَنَّةِ؟ هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلأْلأُ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَنَهَرٌ مُطَّرِدٌ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ فِي رَوْضَةٍ، وَحِبْرَةٍ فِي إِقَامَةِ الأَبَدِ"(١).

فتأمَّل كيف جمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾ هذه المعاني كلها بلفظ واحد، ومع هذا راعى الجانب الموسيقي الذي تقتضيه الفاصلة القرآنية في رؤوس الآي، ولو جاءت هذه الكلمة بصيغة الجمع، أي (أنهار) بدل (وَنَهَر)، لما أفادت غير هذا المعنى، ولو قال (إن المتقين في جنات ونور) لقصر الدلالة على معنى واحد، وكذلك لو قال (إن المتقين في جنات وسعة)، فضلاً عما سيعتري النص من خلل في الجانب الموسيقي للفاصلة القرآنية.

قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٦].

النجم في اللغة يدل على الكوكب، وعلى النبات الذي لا ساق له، وكلاهما من أصل واحد هو الظهور، يقول ابن فارس: "النون والجيم والميم أصلٌ صحيح يدلُّ على طُلُوعٍ وظهور. ونَجَمَ النَّجمُ: طَلَعَ. ونَجَمَ السِّنُّ والقَرْنُ: طَلَعَا. والنّجم: الثُّرَيَّا، اسمٌ لها... والنَّجم من النَّبات: ما لم يكن له ساقٌ، مِن نَجَمَ إذا طَلَعَ"(٢). وبالمعنيين فُسِّر (النَّجْمُ) في الآية الكريمة:

(١) المعجم الكبير: ١/ ١٦٢، الطبراني، أبو القاسم، سليمان بن أحمد بن أيوب، تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي. مكتبة الزهراء، الموصل، ١٩٨٣م.
(٢) معجم مقاييس اللغة: (نجم).

فمن جعله النبات، أشار للمناسبة بين الشجر ذي الساق والنبات الذي لا ساق له، يقول ابن عطية: "وقوله: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ قال ابن عباس والسدي وسفيان: (النَّجْمُ). النبات الذي لا ساق له، وسمي نجماً لأنه نجم، أي: ظهر وطلع، وهو مناسب للشجر نسبة بينة"(١).

ومن جعله نجم السماء أشار إلى مناسبة النجم للسماء ومناسبة الشجر للأرض، يقول ابن عطية: "وقال مجاهد وقتادة والحسن: (النَّجْمُ) اسم الجنس من نجوم السماء، والنسبة التي لها من السماء هي التي للشجر من الأرض؛ لأنها في ظاهرهما"(٢).

واللافت ما ذهب إليه الزركشي من الأخذ بالمعنى الأول واعتبار الثاني توهُّماً من باب التورية، يقول: "أراد بالنجم النبات الذي لا ساق له، والسامع يتوهم أنه أراد الكوكب، لا سيما مع تأكيد الإيهام بذكر الشمس والقمر"(٣).

والحق أنَّ كلا الرأيين صواب، وأحقُّ منهما الجمع بينهما؛ إذ ما الذي يمنع أن يرادا معاً والله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الرعد: ١٣/ ١٥]؟ ففي قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ إيجاز لمعنيين بكلمة واحدة تحتملهما، بل تنطوي عليهما معاً.

قال تعالى: ﴿فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ٢١ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾ [القلم: ٦٨/ ٢١-٢٢].

الصرم في اللغة القطع، يقول ابن منظور: "الصَّرْمُ: القَطْعُ البائنُ،

(١) المحرر الوجيز: ٥/ ٢٢٤.
(٢) نفسه: ٥/ ٢٢٤.
(٣) البرهان: ٣/ ٤٤٥.

وعمَّ بعضهم به القطع أيَّ نَوْعٍ كان"[١].

"وقوله عز وجل إن كنتم صارِمِينَ أي عازمين على صَرْم النخل... ورجل صارِمٌ أي ماضٍ في كل أمر المحكم وغيره رجل صارِمٌ جَلْدٌ ماضٍ شُجاعٌ"[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ يحتمل المعنيين، وبهما قال المفسرون، فقد جاء في فتح القدير: "﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ أي: قاصدين للصرم... وقيل: معنى صارمين ماضين في العزم، من قولك سيف صارم"[٣].

ويقول الثعالبي: "وقولهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ يحتمل أن يكون من صرام النخل. ويحتمل أن يريد إن كنتم أهل عزم وإقدام على رأيكم، من قولك: سيف صارم"[٤].

والذي نرجحه هو الجمع بين المعنيين، والمعنيان من جذر وأصل لغوي واحد، كما يقول ابن فارس[٥]، فبدل أن يقول: (إن كنتم صارمين في عزمكم على صرم النخل)، حذف الجار والمجرور من الأول والمضاف إليه من الثاني، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾، فكسب المعنيين جميعاً، ولو قال (صارمين في عزمكم) أو (صارمين النخل) لما أفاد غير معنى واحد، مع ما فيها من ركاكة النظم، وخلل في الفاصلة القرآنية.

---

(١) لسان العرب: (صرم).
(٢) نفسه: (صرم).
(٣) فتح القدير: ٥/ ٢٧٢.
(٤) الجواهر الحسان: ٤/ ٣٢٨.
(٥) معجم مقاييس اللغة: (صرم).

قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ٧٦/١٩].

قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ تحتمل عند اللغويين والمفسِّرين معنيين:

أحدهما: من (الخلود) بمعنى البقاء، يقول الزبيدي: "وخَلدَ يَخْلُدُ خُلُوداً بالضّمّ: دام وبَقِيَ وأقام. وخَلَدَ يَخْلِد من حَدّ ضَرَب خَلْداً بفتح فسكون وخُلُوداً كقُعُود: أَبْطَأَ عنه الشيبُ وقد أسن كأنما خلق ليَخْلُد"[1].

والآخر: من (الخُلْد) بمعنى السوار والقرط، جاء في التاج: "والخُلْد: السِّوارُ والقُرْطُ، كالخَلَدَة محرَّكةً، وهذه عن الصاغاني ج كقردة. وعن أبي عمرو: خَلَّد جارِيتَه إذا حَلَّاها بالخَلَدة. وجمعها: خِلَدٌ وهي القِرَطَة"[2].

وبالقولين قال الفيروزابادي في الآية الكريمة على التخيير، قال: "﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ مُقَرَّطُونَ أو مُسَوَّرونَ، أو لا يَهْرَمونَ أبداً ولا يُجاوِزونَ حَدَّ الوَصافَةِ"[3].

وكذلك تناقلت كتب التفسير احتمالية الكلمة للمعنيين، يقول الألوسي: "﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: مبقون أبداً على شكل الولدان وحدِّ الوصافة لا يتحولون عن ذلك، وإلا فكلُّ أهل الجنة مخلد لا يموت. وقال الفراء وابن جبير: مقرَّطون بخلدة، وهي ضرب من الأقراط"[4].

ويرى الزركشي أن في الآية تورية وإيهاماً، يقول: "وقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾، أي: مقرطون، تجعل في آذانهم القرطة، والحلق الذي

---

(١) تاج العروس: (خلد).

(٢) نفسه: (خلد).

(٣) القاموس المحيط: (خلد).

(٤) روح المعاني: ٢٧/١٣٦.

في الأذن يسمى قرطاً وخلدة. والسامع يتوهم أنه من الخلود"[١].

ولست أدري لم جعل الزركشي معنى الخلود توهُّماً، مع أنه رأي جمهور العلماء كما جاء في زاد المسير، يقول ابن الجوزي: "وفي المخلَّدين قولان: أحدهما: أنه من الخُلد، والمعنى: أنهم مخلوقون للبقاء لا يتغيَّرون، وهم على سنٍّ واحد. قال الفراء: والعرب تقول للإنسان إذا كَبِر ولم يَشْمَط، أو لم تذهب أسنانه عن الكِبَر: إنه لمخلَّد. هذا قول الجمهور. والثاني: أنهم المُقَرَّطُون، ويقال: المُسَوَّرون. ذكره الفراء وابن قتيبة"[٢].

وأصحّ من الاثنين الجمع بينهما؛ إذ من كمال تنعم أهل الجنة أن يروا خدمهم بأجمل صورة وأحلى زينة، وقد شبههم الله تعالى باللؤلؤ المنثور، فلا بدَّ أن يكونوا محلَّين بالأقراط والأسورة، وأن يبقوا على حالة واحدة لا يغيرون، ولا ينالهم كبر أو هرم يعيب خدمتهم أهل الجنة.

فكلمة ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أصابت المعنيين جميعاً، التحلي بالأقراط والأسورة، والدوام على سنٍّ واحدة، ولو قال (ولدان مقرَّطون) لما أفاد غير معنى واحد، ولكنه البيان القرآني المحكَم، قليل الألفاظ كثير المعاني.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٨].

قوله تعالى: ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ تحتمل من حيث الاشتقاق دلالتين:

إحداهما: من النعومة، كنى بها عن البهجة وحسن المنظر، أي وجوه يومئذ ذات بهج وحسن.

---

(١) البرهان: ٣/ ٤٤٥.

(٢) زاد المسير: ٨/ ١٣٥.

والثانية: من النعمة، أي متنعمة، كما قال تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٨٣/ ٢٤].

وجوز ابن عاشور الوجهين فقال: "و﴿نَّاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٨] خبر عن ﴿وُجُوهٌ﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٨]. يجوز أن يكون مشتقاً من نعُم بضم العين ينعُمُ بضمها الذي مصدره نعومة، وهي اللين وبهجة المرأى وحسن المنظر. ويجوز أن يكون مشتقاً من نَعِم بكسر العين ينعَم، مثل: حَذِرَ، إذا كان ذا نعمة، أي: حسن العيش والترف"[(١)].

ومن المستغرب أن يقطع الزركشي بأحد المعنيين ويجعل الآخر توهُّماً، وأن اللفظ من باب التورية، إذ يقول: "وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٨]، أراد بها في نعمة وكرامة، والسامع يتوهم أنه أراد من النعومة"[(٢)].

وما الذي يمنع أن تكون وجوه أهل الجنة ناعمة ومتنعمة؟ بل هي كذلك، أفاد من الجذر اللغوي وصيغة اسم الفاعل، فأصاب المعنيين بلفظ واحد إيجازاً واتساعاً.

٢- دلالة اللفظ على معنيين من جذرين مختلفين:

قد تتلاقى كلمتان مختلفتان من جذرين مختلفين على صورة واحدة تجمعهما معاً، فتتسع دلالة الخطاب للمعنيين جميعاً، فيكونا مرادين معاً. وقد جاء في الخطاب القرآني اتساع دلالي من هذا القبيل، نستعرض فيما يلي نماذج منه:

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٢٦٥.
(٢) البرهان: ٣/ ٤٤٥.

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣].

في تسمية السورة القرآنية بـ (السورة) احتمالان لغويان، كل منهما مشتق من جذر لغوي مختلف عن الآخر:

أحدهما: أن تكون من (سور)، جاء في مختار الصحاح: "والسُّورُ أيضاً جمع سُورَةٍ، مثل: بُسْرة وبُسْر، وهي كل منزلة من البناء، ومنه سورة القرآن؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى"(١).

والثاني: أن تكون من (سأر)، يقول الراغب: "ومن قال: سؤرة فمن أسأرت، أي: أبقيت منه بقية، كأنها قطعة مفردة من جملة القرآن. وقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ [النور: ٢٤/ ١]، أي: جملة من الأحكام والحكم. وقيل: أسأرت في القدح، أي: أبقيت فيه سؤراً، أي: بقية"(٢).

وأقوال المفسرين في تسمية السور القرآنية لا تخرج عن الاحتمالين، يقول ابن عادل في اللباب: "السورة واحدة السُّوَر، وهي طائفة من القُرْآن. وقيل: السُّورة الدَّرجة الرفيعة، قال النابغة:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَها يَتَذَبْذَبُ

وسميت سورة القرآن بذلك؛ لأن قارئها يشرف بها وترفعه، أو لرفعة شأنها، وجلالة محلّها في الدِّين، وإن جعلت واوها منقلبة عن الهمزة فيكون اشتقاقها من (السُّؤْر)، وهو البقية والفضلة، ومنه: أَسْأَرُوا في الإِنَاءِ، قال الأعشى:

فَبَانَتْ وَقَدْ أَسَأَرتْ في الفُؤَا دِ صَدْعاً عَلَى نَأْيِهَا مُسْتَطِيرَا

(١) مختار الصحاح: (سور).
(٢) المفردات: (سور).

أي: أَبْقَتْ، ويدلّ على ذلك أن (تميماً) وغيرها يهمزون، فيقولون: سؤرة بالهمزة. وسميت سورة القرآن بذلك؛ لأنها قطعة منه، وهي على هذا مخفّفة من الهمز"(١).

ويقول القيسي: "وقد أجمع القراء على ترك همزها فتحتمل الوجهين جميعاً"(٢).

والخلاصة أن التسمية تحتمل الجذرين، وتعبِّر عن المعنيين معاً، فهي قطعة من القرآن (من: س أ ر) يشرُف بها قارئها ويرتفع برفعة شأنها (من: س و ر)، فأدت الغرضين بكلمة واحدة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٦١].

﴿أَدْنَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ من حيث الاشتقاق تحتمل ثلاثة جذور بثلاثة معان متباينة:

أحدها: أن تكون من الدنو، بمعنى القرب المكاني تعبيراً عن الخسة، كما استعير البعد للشرف، فقيل: بعيد المنزلة، بعيد الهمة.
الثاني: يحتمل أن يكون مهموزاً من الدناءة، وأبدلت فيه الهمزة ألفاً.
والثالث: أن يكون من الدون، ثم حدث فيه شيء من الإبدال والإعلال، فصارت (أدنى).

جاء في اللباب (في لفظ أدنى): "وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: وهو الظاهر، قول الزجاج أن أصله (أَدْنَوْ) من الدنو، وهو

(١) اللباب في علوم الكتاب: ١/ ٤٣٤.
(٢) مشكل إعراب القرآن: ١/ ٦٨.

القرب، فقلبت الواو ألفاً لتحركها، وانفتاح ما قبلها...

والثاني: قول علي بن سليمان الأَخْفَش أن أصله (أَدْنَأُ) مَهْمُوزاً من دَنَأَ يدْنَأُ دَنَاءَة، وهي الشيء الخَسِيْس، إلا أنه خفّف همزته...

الثالث: أن أصله (أَدْوَن) من الشيء الدّون، أي: الرَّدِيء، فقلب بأن أخرت العين إلى موضع اللام، فصار: أَدْنُوُ، فأعلّ"[1].

وثلاثة المعاني تصلح لقول سيدنا موسى عليه السلام في هذا السياق، فكأنه قال: أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى، والَّذِي هُوَ أَدْنَأ، والَّذِي هُوَ أَدْون بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟، إلا أن الأولى أغنت عن الأخريين؛ لاحتمالية الاشتقاق على ما بيّنا، فأكسبت القول ثلاث دلالات بكلمة واحدة.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٩].

يحتمل قوله تعالى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ﴾ أن يكون مشتقاً من (سنن)، ويدل على التغير، ومنه ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٨]، ويحتمل أن يكون من (سنه)، بمعنى غيَّرته السنون.

يقول مكي القيسي: "قوله: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ﴾ يحتمل أن يكون معناه لم يتغير ريحه، من قولهم: تسنَّى الطعام إذا تغير ريحه أو طعمه، فيكون أصله (يتسنن) على وزن يتفعل بثلاث نونات فأبدل من الثالثة ألفاً؛ لتكرر الأمثال؛ فصار (يتسنَّى) فحذفت الألف للجزم، فبقي (يتسنَّ) فجيء بالهاء لبيان حركة النون في الوقف. ويحتمل أن يكون معناه لم تغيره السنون،

(١) اللباب في علوم الكتاب: ٢/ ١١٨-١١٩.

فتكون الهاء فيه أصلية لام الفعل؛ لأن أصل سنة سنهة، ويكون سكونها للجزم، فلا يجوز حذفها في الوصل ولا في الوقف"(١).

والوجهان يأتلفان من حيث المعنى، إذ إن الطعام والشراب لن يتغير طعمه أو ريحه، ولم تغيِّره تتابع السنون، فالكلمة أدت المعنيين مرة واحدة.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ١١/ ٢٧].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ يقرأ بهمزة بعد الدال، وهو من بدأ يبدأ إذا فعل الشيء أولا. ويقرأ بياء مفتوحة، وفيه وجهان: أحدهما: أن الهمزة أبدلت ياء لانكسار ما قبلها. والثاني: أنه من بدا يبدو إذا ظهر.

يقول القرطبي: "قوله تعالى: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾، أي: ظاهر الرأي، وباطنهم على خلاف ذلك. يقال: بدا يبدو إذا ظهر، كما قال: (فاليوم حين بدون للنظار). ويقال للبريَّة بادية؛ لظهورها. وبدا لي أن أفعل كذا، أي: ظهر لي رأي غير الأول. وقال الأزهري: معناه: فيما يبدو لنا من الرأي.

ويجوز أن يكون ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ من بدأ يبدأ وحذف الهمزة. وحقق أبو عمرو الهمزة فقرأ: (بَادِئَ الرَّأْيِ)، أي: أول الرأي، أي: اتبعوك حين ابتدؤوا ينظرون، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك، ولا يختلف المعنى هاهنا بالهمز وترك الهمز"(٢).

---

(١) مشكل إعراب القرآن: ١/ ١٣٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٢٤.

obeikandl.com

فالكلمة تحتمل معنى الظاهر من (بدا)، ومعنى الأول من(بدأ)، فأصابت بالتسهيل المعنيين جميعاً، كأنهم قالوا: وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا في ظاهر الرأي وأوله؛ فقامت ﴿بَادِيَ﴾ مقام الكلمتين.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٤٩].

قوله تعالى: ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ يحتمل من حيث الاشتقاق أمرين:

الأول: أن يكون واوياً من (الغوث)، والماضي (أغاث) رباعي، وهو الفرج والنجدة، نقول: أغاثنا الله، أي: أنجدنا وفرَّج عنا.

والثاني: أن يكون يائيّاً من (الغيث)، والماضي (غاث) ثلاثي، وهو المطر، نقول: غاثنا الله، أي: أمطرنا.

جاء في اللباب: "﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ يجوز أن تكون الألف عن واوٍ، وأن تكون عن ياءٍ: إما من الغوث، وهو الفرج، وفعله رباعي، يقال: أغَاثَنا الله إذَا أنْقذنَا من كرْبٍ أو غمٍّ، ومعناه: يغاثُ الناسُ من كَرْبِ الجَدبِ. وإما من الغيثِ، وهو المطرُ، يقال: أغْيَثَت الأرض، أي: أمطرتْ، وفعله ثلاثي، يقال: أغَاثَنَا الله من الغَيْثِ، وقالت أعرابيةٌ: غِثْنَا ما شِئْنَا، أي: أمْطِرنا ما أردْنَا"[(١)].

والذي يُلحظ في دقة استخدام هذه الكلمة أنها بُنيَت للمجهول، فانقلبت الواو والياء في الرباعي والثلاثي ألفاً؛ لتجمع الاحتمالين معاً بكلمة واحد، فكأنه قال: (فيه يُنجَدون ويُمطَرون)، فأكسبت الآية اتساعاً في المعنى، واللفظ واحد.

(١) اللباب في علوم الكتاب: ١١/ ١٢٣.

٣- دلالة اللفظ على معنيين؛ حقيقي ومجازي:

الأصل أن تطلق الكلمة ويُراد حقيقة معناها، وقد تطلق ويُراد بها معان أخر مجازية، وقد استثمر الخطاب القرآني بعض المفردات استثماراً مزدوجاً جمع فيه بين الحقيقة والمجاز فأدَّى المعنيين جميعاً في آن معاً إيجازاً واتساعاً، وفيما يلي نماذج لهذا النوع من اتساع الدلالة في الخطاب القرآني:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ١١٥].

الوجه في قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ يحمل دلالتين؛ إحداهما: الحقيقة في إطلاق اسم المصدر والقصد المصدر، أي: إطلاق الوجه على الاتجاه. والآخر: إطلاق الوجه مجاز في حق الباري عزَّ وجلَّ، يفصِّل لنا ابن جني هاتين الدلالتين بقوله: "قوله سبحانه ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ إنما هو الاتجاه إلى الله؛ ألا ترى إلى بيت الكتاب:

أستغفر الله ذنباً لستُ محصيَهُ ربَّ العباد إليه الوجه والعمل

أي الاتجاه؛ فإن شئت قلت: إن الوجه هنا مصدر محذوف الزيادة، كأنه وضع (الفَعْل) موضع (الافتعال) ... وإن شئت قلت: خرج مخرج الاستعارة؛ وذلك أن وجه الشيء أبداً هو أكرمه وأوضحه، فهو المراد منه والمقصود إليه، فجرى استعمال هذا في القديم سبحانه مجرى العرف فيه والعادة في أمثاله، أي: لو كان تعالى مما يكون له وجه لكان كل موضع تُوجِّه إليه فيه وجهاً له"[(١)].

فابن جني يخيِّر القارئ إن شاء قال الأول، وإن شاء أخذ بالثاني،

(١) الخصائص: ٣/ ٢٤٧-٢٤٨.

ولنا أن نجمع بين الوجهين، فنقول: لو كان تعالى مما يكون له وجه لصح أن يكون كل موضع اتجاهاً إلى وجهه الكريم.

قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٥].

السرُّ في اللغة ضد الجهر، وقد يُطلق ويراد به ما يجري في السرِّ مجازاً، والآية الكريمة من هذا القبيل؛ إذ تعددت فيها أقوال المفسِّرين؛ فمنهم من جعله نكاحاً أو جماعاً، ومنهم من قال: هو على معناه من الاستخفاء، والنكاح محذوف.

يقول العكبري: "﴿سِرًّا﴾ مفعول به؛ لأنه بمعنى النكاح، أي: لا تواعدوهن نكاحاً. وقيل: هو مصدر في موضع الحال تقديره: مستخفين بذلك. والمفعول محذوف تقديره: لا تواعدوهن النكاح سرّاً"(١).

ويقول البيضاوي: "ولكن لا تواعدوهن نكاحاً أو جماعاً، عبر بالسِّرِّ عن الوطء؛ لأنه مما يسرُّ،... وقيل: معناه لا تواعدوهن في السرِّ، على أن المعنى بالمواعدة في السرِّ المواعدة بما يستهجن"(٢).

فالكلمة تحتمل المعنيين؛ إذ عبَّر بـ (السرِّ) عن السرِّ، وعن الوطء الذي يكون عادة في السرِّ، فأصاب المعنيين معاً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ١٠/ ٩].

الهداية في اللغة تعني الدلالة، يقول الراغب: "الهداية دلالة بلطف،

(١) التبيان في إعراب القرآن: ١/ ٩٩.
(٢) أنوار التنزيل: ١/ ٥٣١.

ومنه الهدية وهوادي الوحش، أي: متقدماتها الهادية لغيرها"[(١)].

وتستعمل في غير الدلالة مجازاً.

وقد فسَّر العلماء قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ بمعان منها حقيقة ومنها مجاز:

يقول الثعالبي: "الهداية في هذه الآية تحتمل وجهين: أحدهما: أن يريد أنه يديمهم ويثبتهم. الثاني أن يريد أنه يرشدهم إلى طريق الجنان في الآخرة"[(٢)]. أول الوجهين في قول الثعالبي مجاز، والثاني يُحمل على المعنى الحقيقي للكلمة من الدلالة والإرشاد.

وكذلك القرطبي يقول: "أي يزيدهم هداية، كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ٤٧/١٧]، وقيل: يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ إلى مكان تجري من تحتهم الأنهار"[(٣)].

ويقول ابن الجوزي: "قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ فيه أربعة أقوال؛ أحدها: يهديهم إلى الجنة ثواباً بإيمانهم. والثاني: يجعل لهم نوراً يمشون به بإيمانهم. والثالث: يزيدهم هدى بإيمانهم. والرابع: يثيبهم بإيمانهم. فأما الهداية، فقد سبقت لهم"[(٤)].

فدلالة (الهداية) في هذه الآية عند المفسِّرين تُحمل على الحقيقة بمعنى الإرشاد إلى طريق الجنة، وهذا يكون في الآخرة، أو على المجاز بمعنى تثبيتهم على الهدى، أو الازدياد في الهدى، وهذا يكون في الحياة الدنيا؛ فأدت الكلمة معنيين، وأغنت عن جملتين.

---

(١) المفردات: (هدى).

(٢) الجواهر الحسان: ٢/ ١٧١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣١٢.

(٤) زاد المسير: ٤/ ١٠.

قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧].

الوجوه في الآية الكريمة تحتمل عند المفسرين الحقيقة والمجاز: الحقيقة بظهور أثر الإساءة على الوجوه من حزن وكآبة. والمجاز من طريقين: أحدهما: إطلاق الجزء وإرادة الجميع، كقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٧]، والآخر: إطلاق الوجه على وجهاء القوم وسادتهم.

يقول الألوسي: "أي: بعثناهم ليسوءوا وجوهكم، أي ليجعل العباد المبعوثون آثار المساءة والكآبة بادية في وجوهكم؛ فإن الأعراض النفسانية تظهر فيها، فيظهر بالفرح النضارة والإشراق، وبالحزن والخوف الكلوح والسواد فالوجوه على حقيقتها. قيل: ويحتمل أن يعبر بالوجه عن الجملة؛ فإنهم ساءوهم بالقتل والنهب والسبي؛ فحصلت الإساءة للذوات كلها، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾. ويحتمل أن يراد بالوجوه ساداتهم وكبراؤهم"(١).

فحلَّت جملة واحدة محلَّ ثلاث جمل، باستثمار الحقيقة والمجاز في لفظ الوجوه، فكأنه قال: لِيَسُوءواْ وُجُوهَكُمْ، ولِيَسُوءوكُمْ، ولِيَسُوءواْ وُجهاءَكُمْ.

قال تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٠١-٢٠٢].

الرؤية في اللغة تدل على إدراك المرئي حقيقة، وعلى اقتراب رؤيته

(١) روح المعاني: ١٥/ ١٩.

مجازاً، كما دلَّ الفعل (حضر) على المقاربة في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٠] أي: إذا قارب حضوره، وقوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣١]؛ لأن بلوغ الأجل انقضاء العدة، وإنما الإمساك قبله، وبالمعنيين الحقيقي والمجازي جاء تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

يقول ابن هشام: "﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: حتى يشارفوا رؤيته ويقاربوها؛ لأن بعده ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وإذا رأوه ثم جاءهم لم يكن مجيئه لهم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ، ويحتمل أن تحمل الرؤية على حقيقتها، وذلك على أن يكونوا يرونه فلا يظنونه عذاباً مثل: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾، أو يعتقدونه عذاباً ولا يظنونه واقعاً بهم، وعليهما فيكون أخذه لهم بغتة بعد رؤيته"[(١)].

فانظر كيف اتسعت الآية الكريمة لثلاث دلالات بكلمة واحدة أغنت عن ثلاث عبارات، اثنتان على الرؤية الحقيقية، وواحدة على الرؤية المجازية.

قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٩١-٩٣].

اليمين في اللغة تدلُّ على اليد حقيقة، وعلى القَسَم والقوة مجازاً، يقول الراغب: "اليمين أصله الجارحة... واليمين في الحلف مستعار من اليد اعتباراً بما يفعله المعاهد والمحالف وغيره"[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ يحتمل أن يكون بالجارحة، أي: باليد اليمنى، ويحتمل أن يكون بالقوة، كما يحتمل أن يكون برّاً

---

(١) مغني اللبيب: ٣٤٤-٣٤٥.

(٢) المفردات: (يمن).

باليمين الذي أقسمه في قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٥٧].

يقول ابن جني: "في قول الله جلَّ اسمه: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ ثلاثة أقوال؛ أحدها: باليمين التي هي خلاف الشمال. والآخر باليمين التي هي للقوة. والثالث باليمين التي هي قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾"(١).

والذي نرجحه القول بمجموع هذه المعاني؛ إذ الضرب كان إنفاذاً لتهديده ويمينه فلا يكون حانثاً، وكان الضرب بقوة بيده اليمنى، فاجتمع في (اليمين) ثلاث دلالات في كلمة واحدة، فأغنت عن ثلاث جمل.

قال تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٣٤-٣٨].

الفراش في اللغة يأتي لمعنيين ذكرهما الرازي فقال: "الفِرَاشُ واحد الفُرُشِ، وقد يكنى به عن المرأة"(٢)، وبهذين المعنيين فسَّر العلماء هذه الآية الكريمة.

يقول ابن الجوزي: "قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ فيها قولان:

أحدهما: أنها الحشايا المفروشة للجلوس والنوم. وفي رفعها قولان: أحدهما أنها مرفوعة فوق السرر. والثاني أن رفعها زيادة حشوها ليطيب الاستمتاع بها.

والثاني: أن المراد بالفُرُش النساء، والعرب تسمي المرأة فراشاً وإزاراً ولباساً. وفي معنى رفعهن ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنهن رفعن

(١) الخصائص: ٣/ ٢٤٧-٢٥٠.
(٢) مختار الصحاح: (فرش).

بالجمال على نساء أهل الدنيا. والثاني: رفعن عن الأدناس. والثالث: في القلوب لشدة الميل إليهن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ يعني النساء، قال ابن قتيبة: اكتفى بذكر الفرش لأنها محل النساء عن ذكرهن"(١).

ويقول القرطبي: "وقيل: إن الفرش هنا كناية عن النساء اللواتي في الجنة ولم يتقدم لهن ذكر، ولكن قوله عز وجل: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ دال لأنها محل النساء فالمعنى: ونساء مرتفعات الأقدار في حسنهن وكمالهن. دليله قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي: خلقناهن خلقاً، وأبدعناهن إبداعاً. والعرب تسمي المرأة فراشاً ولباساً وإزاراً، وقد قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٧]"(٢).

ويقول أبو السعود: "﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي رفيعة القدر، أو منضدة مرتفعة، أو مرفوعة على الأسرة. وقيل: الفرش النساء حيث يكنى بالفراش عن المرأة، وارتفاعها كونهن على الأرائك، قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٣٦/ ٥٦]، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾"(٣).

فالفُرُش في الآية الكريمة تحتمل أن تكون فرش الأسرة والمجالس، وتحتمل أن تكون بمعنى النساء كنى عنهن بذكر محلهنّ، فالتعبير بـ (الفرش) أكسب الآية احتمالين في المعنى بلفظ واحد.

قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٧٤/ ٤].

الثياب تطلق في اللغة على شيئين: الملابس حقيقة والقلب مجازاً.

---

(١) زاد المسير: ٨/ ١٤١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ٢١٠.
(٣) إرشاد العقل السليم: ٨/ ١٩٣.

يقول ابن منظور: "الثِّيابُ اللِّباسُ ويقال للقَلْبِ. وقال الفرَّاءُ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أَي: لا تكن غادِراً فَتُدَنِّسَ ثِيابَك؛ فإِنَّ الغادِرَ دَنِسُ الثِّيابِ. ويقال ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ يقول: عَمَلَكَ فأَصْلِحْ. ويقال ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أَي: قَصِّرْ؛ فإِن تَقْصِيرها طُهْرٌ. وقيل: نَفْسَكَ فطَهِّر. والعرب تَكْني بالثِّيابِ عن النَفْسِ"(١).

ولا تخرج أقوال المفسرين عن هذين المعنيين الحقيقي والمجازي للثياب، غير أن ابن عاشور لم يكتف بذكرهما احتمالين على التخيير، وإنما جمع بينهما على ما نؤثر في هذه الدراسة، فقال: "وللثياب إطلاق صريح وهو ما يلبسه اللابس، وإطلاق كنائي فيكنى بالثياب عن ذات صاحبها، كقول عنترة:

فشكَكْت بالرمح الأصم ثيابه

كناية عن طعنه بالرمح.

وللتطهير إطلاق حقيقي وهو التنظيف وإزالة النجاسات، وإطلاق مجازي وهو التزكية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣٣]، والمعنيان صالحان في الآية فتحمل عليهما معاً"(٢).

فقد آثر ابن عاشور في الآية الكريمة الجمع بين معنيي اللباس والقلب، ومعنيي التنظيف والتزكية، فقامت العبارة مقام عبارتين، إيجازاً واتساعاً.

---

(١) لسان العرب: (ثوب).

(٢) التحرير والتنوير: ٢٩/ ٢٧٦.